اختفاء السيد لا أحد



طبع في لبنان

اختفاء السيد لا أحد

أحمد طيباوي



منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com

الطبعة الأولى

1441 هـ – 2019 م

ردمك 978-614-02-1744-7

منشورات ضفاف

Editions Difaf

editions.difaf@gmail.com

هاتف بيروت: 9613223227+

منشورات الاختلاف

Editions El-Ikhtilef

9 شارع محمد دوزي برج الكيفان

الجزائر العاصمة

هاتف 0776616609

e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

الرجل الذي سرق وجهه ورحل

مراوغة

أملك سكينا في مطبخي، لم أكن في يوم من الأيـــام عـــدوانيا، لكني أفكر جديا في الاستعانة به خارج اســتخداماته المعتـــادة، إن استمر هذا الشيخ المقرف في ثرثرته. سأقطع لسانه، وعضوا آخر إذا لزم الأمر. علبة سجائري فارغة، والجو كئيب ومثير للعدوانية، وهو يعطيني -فوق ذلك- أسبابا وجيهة للفتك به. قد يكـــون اقـــتلاع أحدهم من الحياة حلا معقولا حتى بالنسبة لرجل مثلي لا يملك سوى أسباب تافهة ليفعل ذلك. "عمي مبارك"، عمّ للجميع، وليس عمّـــا لأحد. رجل مشاع، مبتذل، وموهوم. يحب سماع كلمات تنم عـــن توقير الآخرين له دون أن يكون أهلا لذلك. عرفت ذلك في المقهى، عندما بدا لي جديرا بدرجة من الاحترام تناسب شيبته. كانت غلطتي من البداية، لما فتحت له باب جحري هذا، وقبل ذلك عندما سمحت له بأن يكسر الحاجز الذي أضعه بيني وبين الناس. الوحـــدة ســـيئة ومخالطة الناس أسوأ. لم أكلم أحدا منذ أيام طويلة، بعـــت هـــاتفي، ليس لدي من أكلمه أو يكلمني. عمي مبارك هو الوحيد الذي امتـــد كلامي معه لأكثر من خمس دقائق طيلة عام كامل.

ما زال يثرثر. أشعل التلفاز الذي بقي دون وظيفة منذ جئـــت للسكن هنا. يحاول أن يثبت لي أنه يفهم على نحو ما كل ما يجري في العالم. اليهود سبب كل المصائب والفتن التي حلّت بنا، قال يحدثني.

هذه زيارته الثانية لي. نقترب من التاسعة مساء، لدي شرفة وحيدة، تطل على ساحة تتوسط العمارات وترتع فيها طوال الليل الكلاب والقطط الشبقة، تعودت أن أجلس فيها وأسهر حتى الفجر.

- الصمت حكمة.. ختم يقول.

سأبصق على وجهه أو أنزع ثيابي وأجلس معه عاريا ليرحل ويتركني. تخبرني ظنوني أن ذلك ما يريده. إنه يحرمني من فسحتي الوحيدة، بأن أجلس في الشرفة وأتأمل تفاهة العالم إذ يسترها الظلام، أو لأقرأ على ضوء خافت لا يثير انتباه الجيران. أفعل ذلك بعد منتصف الليل، وأخاف أحيانا حتى من أن يكشفني جمر سجائري. الطابق الأخير امتياز لا يضاهى. يبدو ألا أهل له، جاء من بعيد، من مكان لا يخبر به أحدا. لديّ يقين بأن هذا العجوز يخفي خلف ابتساماته المتكلفة تاريخا أسود، ونوايا أكثر سوادا. وواضح من كلامه أنه يحب المال ولا شيء آخر.

- من أين أنت؟ ولم لم تتزوج.. ماذا تعمل؟ أين أهلك؟

صرت إنسانا لا يبالي بأي أمر مهما كان جليلا، غير أن أسئلته تثير غضبي. لا أفهم حالة الفضول الغبي الذي يعتريه نحوي. خرجت للشرفة وتركته. يمعن النظر في مقدمة الأخبار، يعدّل نظارته فوق أنفه، ويتنهد. أخيرا سكت قليلا وتوقف عن التغوط في أذني.

اقترب مني في أول يوم دخلت فيه للمقهى الذي يملكه. أهلا بك بيننا، أنت مثل ولدي.. أسمعني ذلك وكلاما آخر يشبه مغازلة رخيصة. اتفقنا أن يكون ما أشربه على الحساب، الدفع آخر الشهر، ولا كلام آخر بعدها بيننا. لا يرتاد المقهى عادة سوى بعض المتقاعدين وحثالة ممن أعطتهم الحياة ظهرها. إنه قريب جدا، لذا لم

أفكر في تغييره بالذهاب لآخر، كما أني أحمل أحيانا فنجان القهـــوة وأقفل راجعا إلى الشقة. رجل مريض بالفضول، ويـــدخل أنفـــه في مؤخرات من حوله دون داع. أحاول أن أتجاهل نظراته، هو وجماعته الصفيقة، أدخل فانكب على جريدة، دون أن يكون لدي رغبـــة في الاطلاع على أي خبر. تبعني أحدهم يوما إلى محطة الحافلات، وقمت بتضليله. فهمت مما يصلني من أحاديثهم أنه مخبر أو قواد لجهة مـــا. عمي مبارك هو الوحيد الذي تجرأ وطرق بابـــي حتى الآن. كيـــف عرف الشقة؟ قال إني وحيد وبلا عمل، وعرض عليّ مشـــاركته في أمر لم يفصح لي عنه.. إذا وُفقنا فيه (قالها هكـــذا بصـــيغة الجمـــع) ستصبح ملكا، أما بالنسبة له فزعم أنه لم يبق له متسع من العمر حتى يطمع في شيء. لم يخلف كلامه أي فضول بداخلي لمعرفة أمر يعتقد أنه سيجعلني ملكا. رجل مبالغ فيه، وعلى الأغلب مشـــبوه وعلـــيّ الحذر منه.. ملك؟ ذلك يقع عمليا خارج دائرة تطلعاتي، دائرة ضيقة ومثيرة للسخرية، ويستحق صاحبها رثاء خاصا. لا يهم، أنـــا عبـــد قذر، لا يعرفه أحد ولا يأبه له، وهذا يرضيني تماما. أخيرا مـــلّ مـــني ذلك الكائن، أطفأ التلفاز وخرج بعد أن ألقى السلام ولم أرد. رأيته يعرج في الساحة، وقف قليلا، ثم غادر بثقة تامة. لم أسأله عن سبب عرجه، لكني أكاد أجزم أن نظارته مجرد تمويه، كل شيء فيه مريـــب حتى ابتساماته.

في العمارة المقابلة تعودت أن تقابلني في جلستي الليلية الطويلـــة مراهقة صغيرة، تنظر إليّ، تلوح بيدها رافعة هاتفها، وتشير إلي بـــأن أعطيها رقمي.. وبأنها وحيدة ومتاحة. أتجاهلـــها أحيانـــا، وأرد في أحيان أخرى بابتسامة لا تكشف عنها العتمة. أنا عاجز عن ارتكاب

حماقة إغواء غريرة مثلها، وزاهد في التحلي بأي فضيلة أو ادعائهـــا حتى أمام نفسي. أريد أن أعيش دون صورة أو انعكـــاس. شـــرفتها مغلقة وأنا لا أزال أنتظر. لا أدري ما الذي يشدني إليها. لست جائعا لدرجة تجعلني أكسر صيامي الطوعي الطويل عن النساء بأي جيفـــة تدعو كل من يقترب منها. ومع ذلك أجدني معلقا.. شـــغف.. ألم أشف من الشغف لأي شيء؟ سأعتل ثانية. تبدو الجهة التي تعلقـــت بها مؤخرا مظلمة لا تحيل على شيء. تبا لمكابر مثلي. ألقـــت، قبـــل أيام، ورقة أسفل شرفتها. قطعت اعتكافي ونزلت متباطئا لألتقطهـــا، كانت خفقاتي تنتظم على إيقاع آخر. ورقة صغيرة مطوية ومعطرة، مكتوب عليها بحبر وردي رقم هاتفها. عدت أحملها وأنا أكثر تعلقا بشرفتها. لم أشر إليها، وهي ترقبني وأنا آخذ الورقة، بأني لا أملـــك هاتفا. ذلك ترف أنا في غنى عنه، كما أني لا أملك ثمن شراء آخـــر لتلتقي خفقاتنا في منتصف المسافة بين رنة وأخرى. مفلس مثل مقامر فاشل. أتكون مغرمة بـــي؟ أهرب من توجيه السؤال لنفسي.

هذه الليلة، أعتقني الشيخ بعد مشقة، جلست في الشرفة أتظاهر أمام نفسي بأني لا أتطلّع إلى أن تطل عليّ. العاهرة الصغيرة، تلاعبني بالغياب بين ليال وأخرى. بقي الكتاب مغلقا فوق الطاولة الصـــغيرة أمامي لم أفتحه. أشعر أني خامد ومتبلد كثور مخصي. راودني توقـــع قوي بأنها ستنال مني.. لن أكون فريستها الأولى ولا الأخيرة.. مجرد ذكر يسجل حضوره بين فخذيها، مثله مثل الكثيرين قبله وبعـــده. وربما تكون عاشقة حقيقية موبوءة بالحرمان وبالتطلع، لكن من ذي التي تعشق خيالا وتتطلع إليه؟ رسمتني في مخيلتها حـــتى دون أن تميـــز ملامحي. أنا كائن ليلي أغلب الوقت، والليل مسرح للشهوة ومرعى

خصيب لكل خيال جائع. خيالي مستنفد وقاحل، لا أحب التباكي على نفسي، ولا قدرة لي على ذلك من الأساس. تاريخي مع النساء يدعو للخجل، أنا عديم الخبرة، ولا شيء فيّ تغيّر منذ كنت مراهقا سوى أني صرت خامدا، محض رماد.

الثالثة فجرا. الجو بارد قليلا لكني ملتهب أرقب مطلع خيالها. هممت بأن أستحم لأعاقب جسدي لأنه يعصيني في الوقت الذي أحتاج فيه إلى أن يكون طيّعا، تكاسلت في آخر لحظة. إرادتي الكسيحة هي علتي المزمنة. هذيان فارغ. سأغلق دفتي الشرفة وأخلد إلى النوم. لم أنزل للمقهى منذ أسبوع، وقد أحاول أن أفعل غدا إن استطعت. أتذكر عمي مبارك، كان قدومه إليّ إيذانا بليلة تشبه وجهه.. لا نور الشرفة المقابلة لاح لي ولا أنا قرأت شيئا. ليست خسائر فادحة بالنسبة لي، ما يخيفني حقا هو أني أتعلق بها، وأنتظر الغد. دسست بدني تحت الفراش لأموت موتا صغيرا. رأسي على الوسادة ثقيل، ليته قُطع في تلك الحادثة القديمة. كنت لأكون الآن هناك في الأعلى أضحك طويلا على الأقدار التي نهبت حصتي من الحياة.

قال كل من سمع بتلك الحادثة بعدها إني قد نجوت من الموت، اختلفت زاوية الرؤية الآن، والزمن كفيل بتصحيح المقولات. حظيت بفرصة أخرى للحياة، ولن أدعي أني أحسنت استغلالها، فرصة ربما كان سيستغلها آخرون، أكلتهم تلك الحرب الشرهة، بشكل أفضل. قُدِّموا كقرابين للآلهة. في عشرية النار والدموع، كان كل فريق يقتل المذنبين والأبرياء على السواء ليتقرب بهم إلى آلهته الدموية.. أمير في الجبال مريض بإيمانه أو مسلح نظامي تابع للسلطة يريد أن يترقى في

الرتب على أشلاء القتلى. يا دين الرب! الله وحده يعلم كم من قربان اختفى أو قتل و لم يُعرف عنه شيء بعدها، ولا أي آلهة التهمته. اختُطفتُ من على ناصية الشارع الوحيد في قريتنا، هناك في سرج الغول شمالي سطيف، مع مراهقين آخرين. كانت فجيعة لأهلي، وكان الزمن سيتولى معالجتها كما يفعل دائما، لكني كنت أقرب ما أكون للخلاص من أي لحظة أخرى في حياتي. لم يعرف ذلك الرجل الذي كان يتعاون مع فرق الموت، وأنقذني منهم لما عرفني، أي قطار آخر للموت وضعني على سكته. مرت سنوات طويلة بعدها، كنت أجلس في بيتزيريا في شارع حسيبة، جائعا ومخذولا، عندما رأيت منقذي يدخل. تكور جسمه وتهدل لحم وجهه، حتى أنا تغير شكلي و لم يتذكرني، يكفي أنه تعرّف عليّ في تلك الغابة والضباب يلف كل شيء. بت ليلتي الوحيدة كمختطف مقيدا ومعصوب العينين، تبولت في سروالي من الخوف والبرد وأنا أتمتم دون توقف بما أحفظه من قصار السور. دعوت الله حتى الفجر بأن ينجيني، وتوقفت عن الدعاء بعد أن سمعت الباب الحديدي يفتح، قدّرت أن أولئك أقوى من أي أحد، وأن الله قد تخلى عني. على حافة الوادي، بغابة الموت، نزعوا الغطاء عن وجهي، إنه من قريتنا، صرخ في وجوههم، تلميذ في الثانوية ولا علاقة له بشيء. قمت من مكاني وعانقت الكهل الذي أصبح عليه. ذكرته بالواقعة، كانت المرة الأولى التي أعانق فيها أحدا بتلك المحبة ويملؤني قدر مماثل من الامتنان تجاهه. بعد كل ما عشته بعد "نجاتي" من الموت، أتساءل الآن من منا مدين للآخر؟ دفع لي ثمن الساندويتش وأعطاني مصروف جيب ورحل. كنت مثيرا للشفقة حقا، مع أن الأصعب كان بانتظاري.

توفيت خالتي قبلها بأيام، وصرت فائضا عن الحاجة، وبعد انتهاء العزاء لم أنتظر حتى يصرح لي أبناؤها بذلك. أعذرهم، أنا نفسي أرى أني زائد أينما ذهبت. تحمّلتني في بيتها سنين طويلة لما جئتها هاربا من الموت، وقررت ألا أتمادى في استغلالها حية وميتة. حصلت على البكالوريا ودخلت الجامعة بفضلها. الموت يضع نهاية لكل شيء. استعضت بها عن أمي، كانت امرأة صارمة مع أبنائها ومع ذلك بقيت تعاملني بشكل مختلف.

صور أمي في ذاكرتي غير واضحة، بعيدة ومشوشة، ولا عاطفة تشدني إليها. أحيانا أفكر أني ولدت دون أم، من ظهر أبي لما سقى بمائه التراب. لم يبطئ أبي في اللحاق بها، كان يحبني حبّا لا مثيل لها، لكن من الواضح أنه كان يحبها أكثر مني، لذا تبعها وتركني أنا وأخي عمّار. زوجة عمي لا تنجب الذكور، ووجدت فيّ فرصتها، أحاطتني بدلال استثنائي، و لم أخيب ظنها، إذ أديت الدور بما يناسب امتيازات الطفل الوحيد. غارت مني بناتها وضربنني أحيانا، كن يكبرنني سنا بكثير، تلصصت عليهن كثيرا وهن تغتسلن أو تغيرن ثيابهن. عشت حياتي أؤدي أدوارا ليست لي، أو أحل مكان من غاب أو تأخر و لم يأت.. طارئا في حياة طارئة. توفيت زوجة عمي بدورها، قال الطبيب في تقريره إن سبب الوفاة سكتة قلبية، بينما كنت أعرف أن لعنة تتبعني قضت عليها. أنا بارع في اغتيال من أحبوني.. أن يحبني أحدهم فتلك وصفة ناجعة لموت وشيك. أين الحب الذي حملته في قلبي لكل أولئك الذي أحبوني بلا حدود؟ توقفت عن زيارة قبر خالتي وقبلها قبر والدي وزوجة عمي وأنا ابنها البديل.. كيف حال أخي عمّار؟ التقينا قبل سنوات في عزاء خالتي،

قال إنه يشتاق لي وعليّ العودة لسرج الغول. أشتاق له الآن جـــدا، أعرف أنه يحبني وأني مقصر في حقه.. لكني انقطع عنه مـــن أجـــل مصلحته، فحياته عندي أهمّ من حياتي، ولا أريده أن يجرّب الوصفة الناجعة.

هل هناك ازدحام وضجر في الأعلى كما هو الحال عندنا هنـــا؟ أتصور أن في السماء العليا قاعة تعرض فيها كـــل الحتميـــات الـــتي شكلت حياتنا والأقدار الممكنة والمحتملة لكل مـــن عاشـــوا علـــى الأرض.

أسمع صراخه، يحدّث من لا يراهم سواه، يعاتبهم على مـــوتهم المبكر، يتشاجر مع جيران قدامى، ويخبر زوجته الراحلة أنّ عليه القيام مبكرا للحاق بشيء مختلف في كل مرة. شاخ المسكين وبدأ يصـــيبه الخرف. لن أنسى ما صنعه ابنه مراد من أجلي، ومع ذلك أراه نذلا. دفع لامرأة ثمن رعايتها لوالده، ثم هاجر وتركه وحيدا. عشت حياتي محروما من أبـــي. أذهب عند والد صديقي، يثير اشمئزازي بلعابـــه، ويخرق كلامه سقف توقعاتي، يكوّن جملا غريبة لا أفهمها. أظنـــها تحيل إلى مزيج من الخيال والحقيقة، الماضي الـــذي أراده ولم يكـــن، وإلى الحاضر القاسي الذي لم يتوقعه. أشفق عليه، أحيانا يناديني مراد، وأحاول من جهتي أن أرد الدَّين، منحني ابنه الشقة لأسكن فيها دون أن أدفع له دينارا. مجاهد قديم، لا أعلم كيف تحصل علـــى شـــقتين متقابلتين، من سكنات اجتماعية تدس فيها الحكومة جموع الجـــرذان وعائلاتهم، وتمنّ عليهم بها، هذا البلد خدعة كبيرة. لا يمكنني النـــوم وأنا أسمع صراخه. يستحق هذا الشيخ التعيس ميتة رحيمـــة، وقـــد فكرت جديا، قبل أسبوع، أن أدس له شيئا في الطعام، ثم تراجعت.

أصبح قلبي جافا وأقسى من أن يُنزل بضعيف مثله رحمة مماثلة. إن مراد يستحق أن يعدم على الخازوق، لم يقدّر نعمة وجود الأب في حياته وذهب إلى ألمانيا. تعود آخر مرة رآه فيها إلى أكثر من سنة خلت. كان يهتف لي مرة كل شهر ليطمئن على والده، إنه فاشل في التمثيل ويفضحه صوته، أظنه كان يريد أن يسمع خبر وفاته، وتوقف تماما عن السؤال عنه منذ ستة أشهر.

أعرف سيرة الشيخ، يستعيد أمامي دون ترتيب ذكريات بعيدة، عن الفقر والطفولة القاسية، وعن الثورة. يمسح النسيان أحيانا كل ذاكرته، فيضيع منه حتى اسمه، إلا الصلاة، يواظب عليها. كثيرا ما ينسى بأنه قد صلى فيصلي مرة ثانية وثالثة، ينقص ركعة أو يزيد، ويؤديها غالبا دون أن يتوضأ. جلبت له حجرا ليتيمم به. بعد أيام سمعته ينادي على مراد بأعلى صوته، كان غاضبا وحزينا، رشق شاشة التلفاز بالحجر. جريت إليه واحتضنته، وجدته يشهق كالطفل، وأشفقت عليه قليلا ولعنت حظي. لا أدري لِم لم أتعاطف معه كليا. فكرت أنه كان قاسيا وظالما في حياته ويستحق هذه النهاية. مجرد ظنون نسيتها في الحال. اشتريت له تلفازا آخر أكبر وأغلى، ورميت حجر التيمم في كيس القمامة.. إن كان قلبه نقيا، يكفيه ذلك جدا ليصلي. اتركه يتابع محطة تبث القرآن دون توقف، يحب صوت عبد الباسط عبد الصمد أكثر من غيره، ويشع وجهه نورا عندما يسمع تلاوته. رجل راسخ الإيمان أو يحاول تدارك ما فات.. يذكرني بمعلم القرآن في قريتنا، الملامح المتقاربة ووقار السنّ. أتذكر مسح اللوح بالصلصال والدواة وقلم القصب والحبر الذي كان صوفا وأحرقناه. أرجح أن يكون قد مات، لم أكن شقيا مثل بقية الأطفال، كنت

بليدا ولا مباليا وكان ذلك يستفزه، ولا أظن أنه أحبني كثيرا. من حسن حظه وإلا لكان رحل باكرا، فمن يحبني يلقى حتفه. أنا أسامحه على كل فلقة تورمت بها قدماي فكلام الله ليس مجانيا.. ما موقف الله مني مؤخرا؟

لا تقبل الحياة بمنطق اللاعب الاحتياطي، لكني صرت كذلك بالنسبة لمراد. يوفر لي مأوى وأكون بالقرب من والده، حارسا، مرافقا، وبديلا عنه هو. يعود للرجل وعيه أحيانا ويدرك تماما أن ابنه تخلى عنه، وأني لست مراد، أظنه يتعمد أن يناديني باسم ابنه حتى وهو في كامل وعيه وذاكرته متقدة. فهم الاتفاق، وربما تصالح مع الوضع الجديد، كما فهمت أنا أن ابنه استخدمني بنذالة أنا ممتن له كثيرا من أجلها. أغلق عليه الباب حتى لا يخرج فيضيع في الشوارع، أحميه من أي دخيل، أدفع فواتير الكهرباء والماء، أشرف على اهتمام المرأة بالبيت، وأنفحها بالأجرة كل شهر.. بقي من العام المتفق عليه أقل من شهر واحد. أنا شاكر لصديقي على نحو ما، وظفني ككلب حراسة دون أن يشعرني، ودون مؤهلات سابقة، حاسة الشم عندي ضعيفة لكن سمعي قوي جدا. نفدت نقودي وعشت أياما صعبة في هذه السكنى، عمليا لم أجد ما آكله أحيانا، ولا ثمن الصابون لأستحم. أدخلني ضميري في صراع أبله، لست لصا لكن بعض المشكلات تتطلب حلولا عاجلة مهما كان نوعها. أحضرت سيارة أجرة وجررت الشيخ إلى أقرب مكتب بريد ليسحب منحة المجاهدين. مبالغ متراكمة، كان مراد الوحيد الذي يملك توكيل سحبها، وجدت أنها ثروة قياسا بوضعي. اشتريت له كبد خروف، طهوته وأكلنا معا، بدا سعيدا مثل طفل، واحتفلت بالانتصار على

ضميري بقارورات من البيرة. سقطت بداخل إحداها حشرة قــذرة، تخلصت منها، ثم صببت ما بقي من القارورة في جوفي كأن شــيئا لم يحدث. وجدت نفسي مجبرا على بيع كتبــي إلى باعــة الكتــب في ساحة البريد المركزي لأتدبر أموري. كنت قد صرفت آخر دينار من المبلغ الذي قبضته مقابل بيع حاسوبــي قبل ذلك. لم يعد لدي مــا يمكنني بيعه دون خجل. اتخذت قراري بأن تكون لي حصة من منحة الشيخ، ضمان المأوى ليس مكافأة عادلة لأبقى بالقرب منه دائمــا. خدعني مراد، وكان علي تغيير الاتفاق لجعلــه أكثــر عــدلا، ثم إن الكلاب لا تجيد الحراسة وهي جائعة.

من أكون أنا حتى أطلق الأحكام على الآخرين؟ كان مراد نزقا ومندفعا، ومع ذلك اعتبره طيبا على نحو، لكنه زير نساء إذا كان من الضروري الانتقال إلى الضفة الأخرى ونعته بالأوصاف المناســبة. لا أشك أن السرير الذي أنام عليه مرّ عليه جيش من العابرات، وجدت تحته رافعة نهدين. وفي ثاني شهر لي هنا رن جرس الباب، ففتحــت ووجدت أمامي أربعينية دميمة تسألني عنه، لم يكن يعتق أي أنثــى، وذوقه مثير للاشمئزاز.. حالة من العمى الجمالي. أنفق القسط الأكــبر من منحة والده عليهن، ولما استنفد حدوده معهن هنــا مضــى إلى الخارج. سيموت بين فخذي امرأة غالبــا. إني أســكن الآن، وأنــا الراهب، في وكر سابق للفجور. باع سيارته ودفع رشــوة كــبيرة لموظف في السفارة الألمانية لقاء الحصول على التأشيرة. أخبرني بعدها أنه سعيد جدا، ينام مع نساء بلا عدد، عيــونهن زرق وأفخــاذهن مصقولة بيضاء، ولا توجد من بينهن من تفوح من إبطيهــا رائحــة كريهة. يهرب من تهمة التقصير تجاه والده وهي ثابتة عليــه، بكــى

كثيرا في آخر مكالمة بيننا، وقال إنه لن ينجب أولادا لكيلا يحمّل وزر العناية به لأحد منهم عندما يكبر. أظن أنه اتخذ قراره النهائي ولن يكون أبا لأحد ولا ابنا سوى لنفسه. بال على الماضي بكل ما فيه ورحل. وجدت الشقة مثل زريبة، غبار وبقايا طعام وعلب بيرة فارغة وخراء جرذان، لا أتقزز من شيء، سبق لي أن بت بعض لياليّ في كوخ تقبع بجواره حاوية للنفايات. كلّمته فقال لي إنه خرج من حالة الشعور بالتواجد هنا وعليّ أن أتصرف. رجع بعدها في الليل، قبّل جبين والده وطلب منه أن يسامحه، تيقنت ساعتها بأنه لن يعود أبدا. غاب أسبوعه الأخير هنا مع من أخبرها بأنها الأقرب إلى قلبه من بين كل من عرفهن، سافرا إلى وهران، ووعدها بأن يسهل لها أمر اللحاق به. سألتني عندما وقفنا نتحدث عند الباب إن كان قد طلب مني أن أبلغها أي شيء، أجبت بالنفي، فوصفته بالنذل وانصرفت.

هدأ مع الفجر وتوقف عن الصراخ. ستأتي المرأة مجددا في الصباح، قبضتُ من مراد أجرتها لعام كامل. لا أحب تضخيم تضحيات الآخرين. امرأة مكافحة وتعمل مثل آلة دون ضجيج. تلقي التحية بتثاقل وتكاد تكون خرساء في وجودي، لكني أسمعها أحيانا تتبادل الكلام مع العجوز. تنظف شقته يوميا، وشقتي كلما طلبت منها ذلك، وأعتمد عليها في شراء كل ما نحتاجه. أصبحتُ بديلا لمراد وكان عليها أن تطيعني، من جهتي لا أجهدها، وأظن أنها تقبلت الأمر، كائن لطيف لكن طباع العبيد في دمها. ضاعفت لها راتبها الشهري، ولم تبد أي امتنان زائد، العزلة مكلفة لكني لا أدفع لها شيئا من جيبي. تسكن قريبا من هذا الحي ووجودها حيوي لي وله.

أمينة وتربـــي أيتاما.. مثيلاتها سينقرضن بعد سنوات قليلـــة. طـــار النعاس من عينيّ، ومضيت إلى الشرفة من جديد. إثبات أقوى علـــى درجة تعلّقي بتلك الكلبة. طلع النهار وحرمني من رؤية نور خافـــت قد لا يحمل أكثر من وهم مخاتل، وعليّ انتظار الليلة القادمـــة.. تبّـــا للانتظار!!

تكالب

صدقت نبوءتي بأن الحياة تدخرني لحفرة براز كبيرة. تبـــا لحظـــي وللشيخ ابن اللعينة.. ثم تبا للمسلخ العمومي الذي أقـــف فيـــه منـــذ ساعات. أكره رائحة الأدوية ومنظر الأطباء والممرضين كالحي الوجوه، كأنهم بياطرة. أخرج للساحة وأعود، لا أستطيع البقاء بعيدا عنـــه لمـــدة طويلة. يظل ينادي عليّ، أقصد على مراد، وأنا الكلب البديل يتوجـــب عليّ أداء الدور حتى النهاية. هذا المستشفى الموروث من الاستعمار بقي كما هو تقريبا، أضافوا له مبان ملحقة فأصيب بتشوه لا يعـــالج. إنـــه مكتظ، مستشفى روبية، روبية ومنطقتها الصناعية.. يجب إعـــدامهم في ميدان عام، أرباب الخديعة. تدهورت حالته وجئت به إلى هنا، مللـــت من البقاء بجانبه طوال الوقت. قد يحتاج إلى مرافق إذا قرروا إدخاله لعدة أيام.. لا يهم سأتدبر الأمر. سألني الطبيب إن كان يأكل جيدا، فأجبتـــه دون تفكير بأنه فاقد للشهية. كذبت عليه، نفد كل ما كان لدينا مـــن طعام، أحيانا كان يظل صائما إجباريا حتى الليل، أعطيه القليل وأســـقيه ماءً محلى. جعت أنا أيضا. صرفت آخر دينار بحوزتي، ولما مرض بشدة، أشفقت أن آخذه إلى مكتب البريد. كان مستحيلا أن يخـــرج دون أن يتعرض للخطر. لم أقدم على المجازفة وبقينا معلقين.

العبيد يتمردون عند أول فرصة. تخلت عنـــا المـــرأة بعـــد أول أسبوع من عجزي عن السداد. توصلت لفكرة بيع التلفـــاز، كـــبير

ومن آخر طراز، ورحت أمني نفسي بالمبلغ. ساعة الحقيقة قبضت ثلث ثمنه، قد يكون مسروقا قال لي الرجل الذي استغل حاجتي للمال، أما صاحب محل للأجهزة الكهربائية فصرخ في وجهي متوعدا إياي بالشرطة إن دخلت إليه مرة أخرى بدعوى أنه لا يتاجر في المسروقات. عدت بالمبلغ وأنا أشعر أني مجرد ذراق على حافة سقف العالم، لم لا تهب ريح وتقذفني في الفراغ الكبير؟ ومع ذلك كنت سعيدا قليلا، استأجرت سيارة أجرة وأحضرت معي خضرا ولحما وأكياسا من حفاظات الكبار، وبقي لي قسط أدفعه للمرأة. أسبوع لا ينسى، ويبدو أن روحه تمتد لأكثر من أيامه التي انقضت. جربت كل أنواع القرف من قبل، إلا أن استبدل لأحدهم حفاظاته، انزع له ما امتلأ منها بالبراز والبول وأُلبسه أخرى جديدة.. هوان لا حدود له. الحفاظات أهم اختراع في التاريخ، أما إنسانيتي المفرطة فمن أخطائه التي تتكرر دائما. يخبرني الطبيب، بارتخاء تام، بأن الشيخوخة لا دواء لها.. فتح عظيم! ربما فكر أني أريده أن يشفى أو أن يفلت من الموت! يحتاج إلى إجراء تحليلات.. وأنتم؟ بعض الأجهزة في المخبر معطلة، ولن يتم إصلاحها قريبا.. عليك بمخبر خاص. تحيا الدولة الوطنية، دولة الرفاه والجيوب المتخمة. لم يبق في جيبي سوى ورقة من ألفي دينار، لا تفعل شيئا. ليته يموت، لماذا يتشبث بالحياة؟ سيبقى الأمر معلقا إلى الغد أو إلى الأبد. تعرّق جسمي كثيرا واتسخت ثيابي، وأريد أن أعود لأستحم. أكبر إنجاز حققته اليوم أنهم قرروا إبقاءه عندهم، كان بودي أن أرجو الطبيب المتجهم بأن يحقنه بما يجعله ينام طويلا، نوما يشبه الموت، غيبوبة عميقة. لن أحتج، بالعكس، سأكون ممتنا لملامحه الجهنمية التي تظهره قريبا من القتلة.

ما كانت حاجتي بالحرية؟ سؤال طرحته متأخرا بندم غير قليل، في الليلة ذاتها التي قررت فيها استرجاع حريتي بأي ثمن. لم أكن مذنبا ولا مريضا، كنت متأكدا من نفسي وهذا يكفي. أوهمتهم بذلك لأنجو بنفسي، فوقعت في مأزق لعين آخر. لا أريد أن أستعيد الحادثة ولا كيف وجدت نفسي مضطرا أن أقبع في مستشفى للمختلين نفسيا مثل مريض لا يرجى شفاؤه. لا شأن لأحد بذلك، هذا سر بيني وبين القدر، أما ذكرياتي مع أصحاب المآزر البيضاء فأغلبها غير حميدة. لا أكره في الحياة أكثر من الأطباء والمحامين، رموز الإنسانية المزيفة. نافقت بعضهم وخدعتهم مطولا، لعبت معهم الدومينو و لم يبخلوا عني بالسجائر. تخرّج أغلبهم من الجامعة كبضاعة معيبة، وكفاءتهم محل شك دائم. خدمني ذلك فيما بعد، رغم أنهم أهلكوني بالأدوية في البداية، سألعنهم إلى أن أموت. أوهمت ممرضة بدينة بأنها فاتنة، المحرومة تصدق حتى مجنونا، أنفقت لها المجاملات بلا حساب، وحظيت بامتيازات رائعة، بعض النفاق مثمر جدا. كشف لي الطبيب أنه سيكتب لي ما يفيد بكوني قد شفيت تماما، كنت سأستعيد عقلي بشهادة منه لكن حريتي كانت في الرهان. عند حلول الظلام قصدت مكتب الطبيب، كان قد وقع على شهادة خروجي، وجدته مرتخيا على كرسيه بسبب الحر والتكييف المعطل، ظروف العمل لا تناسبه ويفكر في الهجرة، ولا يريد أن يبقى عبدا عند الدولة تمتص دمه، هكذا أخبرني وتحدث معي كأي عاقل من أصدقائه. أراني الشهادة وحاولت أن أبدي قدرا قليلا من الاكتراث. أعادها إلى ملفي، استأذنته وانسحبت. اتفقت مع الممرضة، لن أعود للقاعة الكبرى أبدا، سأهرب الليلة، وظهر على ملامحها حزن حقيقي.

تأسفت من أجلها في داخلي، وعدها بأن أتزوجها.. سنكون معا للأبد يا حبيبتي وصدقتني. لولاها لكان خروجي من ذلك المكان اللعين مستحيلا. كان من المفترض أن تبلغ إدارة المستشفى جهة ما في الغد، ليعيدوني إلى حيث لا أستحق أن أكون، إلا أن وجهة نظري كانت مختلفة. حفظت المستشفى من قبل شبرا شبرا، تكفلت حبيبتي بتغطية غيابي، فيما تسللت واختبأت في مكان لا يخطر على بال بشر.. ومع الفجر كنت مع الحرية على موعد جديد.

ألبسته حفاظة جديدة وسقيته ماء، قد يبيت ليلته وحيدا، لكني سعيد بأن أخرج من المستشفى متخففا. ليس بإمكاني المبيت معه. لا أملك بطاقة هوية ولا أي وثيقة أخرى تثبت شخصيتي، وهم يحتاجون في إدارة المستشفى لإثبات هوية من يرافقون المرضى. في الصباح، وأنا أحضره في سيارة إسعاف الحماية المدنية، أخبرتني الخادمة بأن ابنها المراهق يمكن أن يتولى أمر المبيت معه. حل بديع، أبديت لها امتناني، قبل أن تعلمني بلهجة شبه آمرة بأنه يتوجب عليّ أن أدفع له. حاولت أن أفاوضها بأنها ستتخلص من بطن عليها أن تملأه بالطعام صبح مساء، سيأكل حصته وحصة الشيخ المسكين من طعام المستشفى لكنها رفضت.. وافقت طبعا. سأدفع له حق ليلتين مقدما وأرسله فور عودتي، خمسمائة دينار لليلة، صفقة رابحة. ذلك أفضل ما هو متاح.. بل إنه المتاح الوحيد أمامي.

لن يهتم مراد كثيرا لحالة والده، سوف يعالج حزنه العابر عليه بامرأة وبعدة كؤوس، ثم ينتهي للتصالح مع فكرة احتضار أبيه، ومع ذلك يتوجب عليّ إبلاغه. أحتفظ بآخر رقم كلمني منه في أجندة صغيرة لا أذكر في أي مكان رميتها فيه. بقيت مشكلة الهاتف..

سأتصرف. كم أتمنى أن تحدث معجزة وأجـــده واقفـــا أمـــامي الآن، لأركله على مؤخرته.. كلب.. لا أحقد عليه، أنا غاضب فقط، مـــا زلت أشعر بالامتنان له، أواني ليستغلني ويريح ضميره، ومع ذلك أنـــا ممتن له كثيرا حتى بعد كل ما عانيته مع والده، لا قليلا فقط. بقيـــت تشفع له عندي قمصانه وسراويله وملابسه الداخلية، جربتها أول مرة فوجدت أنها ليست على مقاسي، كان بدينا، وبدوت فيها مثل بهلوان حقيقي. ذهبت لخياط قريب فعدّلها وأصبحت لائقـــة.. لا شـــيء في الحياة كان على مقاسي، حياتي التي تشبه ثوبا مرقعا، أريد خياطا يعيد تفصيلها بحسب رغبتي، ما الذي أرغب فيه حقا؟ ربما أن أخلعها عـــني وأواجه الموت عاريا كما أتيت منه عاريا أول مرة. خضعت لاختبـــار صعب، وكان بإمكاني إهمال الشيخ حتى يموت وتفوح جثته.. أســـافر بلا عودة، أو أعود بعد أن تنسى حكايته، لم أفعل، حملت في قلبـــــي شفقة عليه كان من المفروض أن تكون من نصيب أبـــي لو قدر له أن يعيش حتى أراه شيخا. الحافلة تهتز والرائحة نتنة.. لا أحتمل رائحـــتي. مات أبـــي وكان من ثمار موته البعيدة أن ذلك الخرف وجـــد مـــن يرعاه. صرخت في وجهه، شتمته وعيّرته بابنه لكن لم أتخل عنه. لست نذلا كاملا. عندما يموت قريبا كما أتمنى سيخفت تذمري من فضلاته وروائحتها العالقة فيّ وفي شقته التي يجب أن أنظفها عندما أعود وأرتاح قليلا. سأترحم عليه.. منحني القدر فرصة لمعايشة حالة كـــان يمكـــن لأبـــي أن يصل إليها. رجل حكيم آثر أن يرحـــل عفيـــا.. ضـــعف الشيخوخة إذلال للإنسان إن لم يجد من يتولاه.

وصلت للمحطة، ونزلت دون أدفع لقابض الحافلة الحقـــيرة.. الشاب المتذاكي، غفل عني فانحدرت كمن لا يبالي بشيء. ليســـت

المرة الأولى التي أفعل هذا. ورقة الألفي دينار الخضـــراء، يبعـــث فيّ ملمسها بين أصابعي بعض الحيوية والشعور بالقوة. سأفكها وأبقـــي لابن الخادمة نصفها، بعد أن أشتري علبة ســـجائر "ريم" وصـــابونا لأستحم وشريحة لأكلم مراد. لن أمنّي بطني بأي وجبة، قهوة مركزة تكفي. أنا جائع لكن يمكنني التحمل، وسأكون سعيدا إن لم يؤرقني الجوع. هذه ليلتي الأولى التي أعود فيها للنوم في شقتي، بعد أســـبوع قضيته ساهرا عليه. لا أستطيع أن أتمنى له الشفاء، وقد قال الطبيـــب "إن الشيخوخة لا دواء لها"، لن أزايد عليه في مجال تخصصه. لـــديّ شقتان أبيت جائعا في أيهما شئت.. ترف كامل إلا وجبة. الجـــوع كافر والشبع أشد كفرا. كان يجب أن أحتاط لهذا، سحبت مبلغـــا محترما من منحة الشيخ وأسرفت في المصاريف. وقبل ذلك لما كنـــت أشتغل حمّالا في محلات الجملة بالسمّار، حصّلت نقودا كثيرة، وضاع مني أغلبها أو سرق مني. فتحت رأس حمّال يعمل معي وأصـــبته في كتفه، وهربت. ربما كانت محض ظنون، لا أدري، كنت ممتلئا غيظا منه من قبل وواتتني الفرصة مع أول استفزاز جديد صدر منه. قبل أن أنتقم منه وأرحل طلبت من الخنزير الذي كان يشـــغلنا أن يعيـــد لي بطاقة هويتي لأمر أود إنجازه على أن أعيدها له في الغد. كان يحتفظ ببطاقات هوياتنا عنده تحسبا لموقف مماثل.. يضمن لنا المبيـــت أمـــا الأكل فعلينا. وإذن لا أحد يمكنه أن يستدل عليّ أو يجـــدني، إلا إذا كان قد صوّر نسخة عنها، لكن لا أظن أن صاحب تلـــك اللحيـــة الشيطانية قد اتخذ احتياطه. كان كل همه أن يشتري في آخر النـــهار المكسرات والعسل ليكون أكثر فحولة.. ماذا تغنيه الفحولـــة وهـــو خنزير؟

قضيت أياما صعبة، متخفيا وجائعا، نمت في محطة الحافلات بالخروبة لعدة ليال، استفزني عامل نظافة وأفلتت بصعوبة من الحراس. مناوشة عادية، لكن لم يعد ممكنا لي أن أعود. فكرت قبل ذلك في أن أركب أي حافلة تجاه الصحراء أو الغرب أو الشرق، وليس لسطيف طبعا، ثم تراجعت. في ليلة مقمرة وصلت لحي يحاذي محطة القطار بروبية. لا أعرف كيف وجدت نفسي هنا في هذا الحي بالذات، جائعا ورائحتي نتنة. أستحم الآن أخيرا وأتخلص من رائحتي. مر مراد بقربي، تبادلنا حوارا طويلا لا أذكر منه شيئا، كان شبه سكران فيما لم يدخل الزاد في بطني ليوم وليلة. وافق أن أبيت معه، وأخبرني أنه قد يسمح لي بالمكوث عنده طويلا بعد أن يتأكد في الغد بأني لست مطلوبا لدى الأمن، ولحسن الحظ، كان سجل المبحوث عنهم خاليا من اسمي. سقطت بطاقتي في مرحاض المحطة وتبللت، استخرجتها، ولما وجدتها تالفة تماما.. رميتها مجددا وسكبت دلو ماء. نسيت اسمي لما سألني عنه في البداية، كنت أمنح نفسي اسما مختلفا في كل مكان أرحل إليه. كنت جائعا جدا وأطعمني. مررت يومها على أصحاب محلات ومطاعم شعبية، كانوا ينهروني ولا أحد منهم تكرّم بوجبة ساخنة. كنت مستعدا لإحراق المدينة بأكملها لو أتيح لي ذلك. هل يعرف أحد معنى أن يتحول إلى متسول جائع يرفض الآخرون إطعامه؟ طيلة الأيام التي عشت فيها معه، كنت أنادي مراد بالصديق. انزعج في البداية، أنا مجرد مشرد قذر، تائه وجائع أبدا.. ومع ذلك كسبت قلبه، وتقبّل أن أكون ندا له في بعض الأمور. وربما رأى فيّ هدية من القدر.. هدية وجدها صدفة قرب مكب النفايات.

في منتصف الأسبوع الذي تمتد روحه معي حتى بداية هذه الليلة، زارني عند منتصف النهار متطفل آخر. دق جرس الباب وكان معطلا، ثم طرق الباب فرأيته من العين السحرية. كانت لحيته كثيفة ويرتدي عباءة صفراء، وأنا أتوجس دائما من المهندمين بشكل لافت. فتحت له، لم تكن ملامحه جديدة عليّ تماما، رأيته من قبل، كان يتبعني بنظراته في الصباح وتجاهلته. ذهبت باكرا جدا للمقهى، تناولت فطوري على الحساب، ثم تذللت لعمي مبارك بابتسامة لأول مرة. كنت محتاجا لأن يقرضني أي مبلغ، جاركم الشيخ المسكين مريض، أردت أن أستثير شهامته، لكنه وغد كبير، لم أظفر منه بشيء. كنت مثيرا للشفقة.. شفقة أي مؤمن أو فاسق. بقي يمسح بيمينه على لحيته المهذبة وهو يرمقني بنظراته، وكرر ذلك خلف الباب منتظرا أن يُفتح له، رسم ابتسامة، جئت لأعود الشيخ.. بلغني أنه مريض جدا. من أبلغه؟ أنا إمام مسجد حيّنا هذا، مسجد التقوى، إذا كنت لا تعرفني.. وأكمل يقول.. هذا الشيخ مؤمن ومجاهد كبير، كان يصلي خلفي في الصف، لا يفوّت وقتا. أيمدحه أم يذمني؟ ثم متى كان ذلك؟ لم أره يخرج من الشقة أبدا منذ أتيت إلى هنا، مخذولا من ابنه، ينتظر الموت ولا شيء آخر. جعل يدعو له، وانتظرت أن يضع يده في جيبه، العجوز جائع والكلمات لا تسكت الأمعاء الخاوية. أخيرا سبّق لي مبلغا، وأنّبت نفسي على سوء الظن، رجل من رجال الله. عدت لأسوأ من ظنوني السابقة عندما كشف لي عن السبب الحقيقي للزيارة. استعار ملامح جادّة، وتلا عليّ اقتراحه.. في الواقع كان مشروع استغلال، أنا كائن قابل للاستغلال على الدوام، ليس الأمر جديدا ولا شيء يدعو للأسف حقا. طلب أن أسمح له

بجلب مرضاه إلى هنا، الرقية الشرعية، ولي نصف ما يقبضه، كلمة شرف بيننا وحسنات بلا عدد. وافقت دون تفكير تقريبا، لم أشرب بيرة منذ أيام طويلة، والحاجة أم الإذلال. اتفقنا على الموعد، وزبائنه كثر. المؤمن يستر أخاه، وعليّ أن أخلي شقتي، وافقت على ذلك أيضا. أمكث في شقة الشيخ.. سيكون من الأفضل أن تبتعد أكثر، تمادى في تحييدي.. المؤمنون عند شروطهم، حسنا. تجهم وجهه لما سألته عن أجرة العلاج الإيماني، الناس مرضى ويدفعون بكرم لإزاحة الشيطان حتى يفسحوا للملائكة القابعين في داخلهم أن يظهروا.. الوصفة الربانية باهظة التكاليف. طمأنني.. ستكون مرتاحا، مرتين أو ثلاث في الأسبوع، بعد الظهر، وأحيانا يوميا.. وافقت مرة أخرى. الفقر كافر وهذا الرجل المؤمن سيطرده من هذه الشقة. في المستشفى كنت مقتنعا بأني سليم، أمثّل عليهم دون تقمص، أما حالتي هذه الأيام فجديرة بأن يعاد فيها النظر. الظروف تفرض علينا قواعد اشتباك جديدة مع الحياة في كل مرة، وعلى النفس أن تتأقلم. منطقة معتمة في ذاكرتي ترفض أن تعيد عليّ ما حدث، استرجعت نكبتي في شكل كوابيس مفزعة طيلة أشهر، واستطعت أن أنسى وإلا لكنت انتحرت. الموت بطريقة جبانة أرحم من مواجهة الألم وأنا أعزل من كل شيء. لست حزينا على أني نسيت ما حدث، وحتى إن تذكرته فسيبقى سرا يرافقني إلى القبر.

"وتعاونوا على البرّ.." ختم يقول، وانسحب دون مقدمات. بقيت أفكر دون قدرة على التراجع عن الاتفاق. مآزق الحياة لا تنتهي وحرية الاختيار تغدو معها ترفا بعيدا. بعد ساعة أحضر أول زبون، كانت شقتي عفنة، لم تنظف منذ أسبوع، ليس لدي ما

أستحي منه، ثم إن الطهارة في القلب، و لم يكن أمر تهيئتها ضمن الاتفاق أصلا. اندهش لما رأى وضعها، وتغافلت عن تبرّمه كأن الأمر لا يعنيني. أنهى المعاينة وقال إنه يحتاج ساعة أو أكثر، وطلب مني المغادرة. بقيت أنتظر نهاية الكشف، الساعة الكاملة، قضيت نصفها في المقهى، كان فارغا، يوم حار ورطب، استفرد بي عمي مبارك، وتأسف لأنه لم يستطع إقراضي ما طلبته منه، وضرب لنفسه موعدا معي في الليل.. خرجت من عنده، وقفت في الظل قليلا، أين أمضي ما بقي من الساعة المتفق عليها؟ عند الباب العمارة التقينا، دخلت امرأتان، فيما بقيت عجوز في سيارة الأجرة التي أحضرتهن تنتظر، ثم لم تلبث أن غادرت لتعود فتأخذهما لاحقا. رجعت أحسب الدقائق، ومن الساحة سمعت صوت الشيخ يتعالى، ألم البروستات لا يحتمل.. يصبر قليلا ويكظم أوجاعه، وعندما تغلبه يصرخ من جديد. هذه المرة كان ينادي على مراد بأعلى صوت.. صعدت إليه، استعان بالصبر مرة أخرى، وساد صمت حذر، فجأة انطلق صوت آخر من شقتي. ترددت قليلا، بل كثيرا، المال في جيبي أخرسني، لكن شيئا كان يعضني من الداخل، أشفقت على المريضة، تعينها مرافقتها على الموقف العسير، وتعين الإمام على الجن الذي يسكنها. ليس من السهولة بمكان طرد جن توطّن في جسد شابة ممتلئة بعض الامتلاء، وقد أنبأني حجابها الأسود عن فائض غواية يكون قد استثار عاطفة كتيبة من العفاريت. عند باب العمارة كانت قد مرت بقربي، أنزلت عيني من عليها، لمحت شبه ابتسامة، وتظاهرتُ بالحياء، بصري إلى أسفل بينما وجد الشيطان في قلبي ميدانا فسيحا يلعب فيه.

مرّت دقائق أخرى، صارت الأصوات التي تنطلق من الشقة

مريبة، واستعار الجن لهاثهم بالداخل، همهمـــات وكـــلام خافـــت، والشيء يعضني من الداخل أكثر فأكثر. هل للضمير أنياب؟ لم أكن غبيا لأنسى تعطيل قفل الباب من الداخل، في الفسحة الضيقة بـــين بابـــي الشقتين وقفت للحظات، ثم دفعت باب شقتي بكامل بدني، فسقطت المرأة التي كانت تتكئ عليه مـــن الـــداخل، وتـــؤدي دور الحاجز المتين، أرضا. خطوت إلى غرفتي بسرعة، أذهلني وضع الإمام الخمسيني الوقور وهو متمدد على سريري عاريا، ومن كانت بحجابها الأسود قد أصبح يضيق بجسدها المشحون قميص نوم أزرق. كانت ابتسامتها عريضة هذه المرة، وتظاهرها بأثر المفاجأة لم يكن صـــادقا جدا..

الأقدار تهزم الجميع، هذه حقيقة لن أسمح لأحد بأن يناقشـــني فيها بعد اليوم، مثل أن قدر هذه الشقة القـــذرة أن تكـــون وكـــرا للفجور مهما كان من يسكنها، ومثل أن قدري أن أكون محرومـــا دوما. لم أفرح طويلا بالنقود التي سبّقها لي الإمـــام، كرهـــت أنـــه خدعني، وعاقبته، نال مني هو وبقرتاه عدة ركلات، إنها زوجـــتي الثانية.. الأولى لا تعلم ولم أجد مكانا للخلوة الشرعية، هكذا بـــرر أمامي موقفه، يجب استخدام كلمة "الشرعية" بين جملـــة وأخـــرى، لست مصدوما فيه.. انتهى الأمر بمبلغ لذا فرحت بعض الفرح، كما أن إمكانية ابتزازي له قائمة. تضمنت مشاريعي لتلـــك الليلـــة، أن أحضر لي وللشيخ عشاءً ملكيا، وتغاضيت عن حقيقة أنـــه يحتـــاج للطبيب والدواء، وقررت أن أخصص ما سيبقي بحوزتي مـــن المبلـــغ لتسديد فاتورة الكهرباء وشراء علب من البيرة. أنانية.. سوء تقدير.. لم يتح لي الوقت للندم، زارني في العصر من ســـحب جـــل المبلـــغ

ومضى، المكتبـــي الذي يجلس في المقهى أحيانا ويستخدم عبـــارات صعبة، كانت ديوني قد تراكمت وفاقت الحد المتفق عليه.. استخلص قيمة الدين وقطع أملي في أي مناورة جديدة.. ادفع ما عليك واطلب ما تريد، أرسى قاعدة جديدة في التعامل معي، كانت ملامحه قاطعـــة ولا مجال للتفاوض. قدر آخر هزمني ورحل. انتهت آمالي العريضـــة بليلة يشبع فيها الشيخ لحما، وأسكر وأنا أرقب الشرفة لأرى خيـــال من بات مزاحها ثقيلا.. انتهت إلى عشاء بالبيض والجبن، ولا شيء في الشرفة غير السجائر.

بقيت الشرفة المقابلة مغلقة، منذ ليالي طويلـــة وهـــي مغلقـــة، ويئست من عودتها مجددا تقريبا، ومن جدوى ترقب نـــور الشـــرفة والخيال. أحرث المستحيل دائما وأحصد الهباء. بلغت العاشـــرة ولا شيء جدّ، أطل على الشيخ بين نصف ساعة وأخرى، السماء تمطر، والليلة كئيبة. فرحت مع ذلك لما تذكرت أن عمي مبارك قد أخلف موعده معي، وكأي شيء يسرني لم يدم ذلك طويلا. بعـــد دقـــائق معدودة كان يجلس في الصالون مبللا، صامتا على غير عادته. هممت أن أسأله عن سيرة إمام الحي، و لم أجد رغبة حقيقية في ذلك. انتقلت للمبادرة هذه المرة، ماذا تريد مني؟ في مقبرة بعيـــدة ومهجـــورة، في "البلاد" حيث أصوله، دفنت جماعات الشر في سنوات الإرهاب كنزا حقيقيا. زمن الحرابة وجماعات الليل، كانت الناس تفدي رقاها بالمال والمال يتكدس.. لا أمان في النقود، والذهب وحده ملـــك في كـــل زمان. سبائك مدفونة، وعلينا نبش أغلى قبر في العالم، أربع وثلاثون سبيكة، قلة كانوا على علم بالأمر، قتل الجيش منـــهم مـــن قتـــل، ووحده الشيخ المريب من يعرف إحداثيات القبر، وسيكون الوريـــث

الوحيد. أحتاج إلى شاب قال لي، وليس هناك من يصـــلح ســـواك، نحتاج للمبيت لليلتين فقط، منتصف الشهر والقمر بـــدر، ســـنحفر عميقا، هناك رعاة في المنطقة، و لم يعد الناس يدفنون موتاهم في تلك المقبرة، سنكون مكشوفين جدا في النهار، لذا علينا بالليل. ســـيكون عليك الجهد الأكبر، نصيبك هو الثلث ومعه سبيكة هديـــة. ننـــهي الأمر، نترافق إلى أقرب مدينة، سأخبرك باسمها عندما نتفق، أعود أنا إلى روبية، وتختفي أنت من العاصمة إلى الأبد، كما يُفضل ألا تعـــود حيث لا أدري أين أهلك.. كن حذرا وانس عمك مبارك.. وعـــش ملكا.

لم أفهم أي نوع من الحبوب تناول قبـــل أن يـــدخل علـــيّ، استمعت إليه، وقاطعته مرات قليلة، لاستوضح كأني مهتم بعرضـــه فعلا. مجرد فضول، قام يمنيني بالكثير إن نجحت المهمة وكله يقين بأن موافقتي تحصيل حاصل. دسّ يده في جيبه، كان بحوزته مبلغ كبير من المال، ظننته دفعة على الحساب، لكن الرجل لئيم. أنا جرو جـــائع، ويكفي أن يظهر لي قطعة خبز حتى أتبعه.. رحل بعدها مباشرة. لِـــم لم أحسم الأمر في حينه؟ شيء ما في داخلي كان قـــد كـــف عـــن عضي، وأغراني بمغامرة أهزم فيها قدري بالضربة القاضية.

شفافية

أنا حبيس جملة من الظروف لا أجد سببا منطقيا يجعلها تتفرغ لي وحدي من دون الناس. صرت مثل الفأر المعلق مـــن خصـــيتيه. انقطع الماء عن الحي منذ أيام والشقة في حالة مريعة. يتكدس البراز في الكنيف، و لم أشأ أن أحمل دلوا وأتسوّل الماء، دلو واحد جلبته فجرا من المقهى، وهو لا يكفي لشيء. جرذان المجاري أنظف مـــني الآن. احتاط الجيران بوضع صهاريج لمواجهة أي أزمة، أما أنـــا فأذهـــب لقضاء حاجتي في مرحاض المسجد أو في مقهى عمي مبارك، وصـــار عليّ أن أتذلل له بمزيد من الابتسامات. الشيخ في الجوار نائم. يظـــل مستلقيا طوال اليوم على أريكة طويلة، وأحوله إذا تعب إلى سريره. لن أكذب وأقول إني أصبحت لا أكرهه أكثر. أتعمـــد أن أطعمـــه القليل حتى لا أضطر لتغيير حفاظاته كل ساعة، كان مصابا بإسهال وفكرت جديا في تدبير ميتة عاجلة أسترجع بها كرامتي. ناولتـــه دواء ولحسن الحظ خفّ عليه الأمر، ثم كانت ســـعادتي لا توصـــف لمـــا أصيب بإمساك، للأسف لم يكن مزمنا. أعطيته الشـــكولاطة بـــلا حساب، من النوع الرخيص طبعا. وتوصلت بعدها لحل أقل تكلفة، وصار الأرز وجبتنا الدائمة. أنا النسخة المستكينة من مراد، كلـــب خاضع بدل كلب مسعور ضال في الأرض. أنا لا أحد، ســـوى مـــا أرادني الناس أن أكون عليه. كان اقتناء الشريحة، واللهث وراء مـــن

يعيرني هاتفه لدقائق كي أشغلها، جهدا دون طائل. آخر رقم اتصل بي منه لم يعد له أو لا أدري، ردت عليّ امرأة، تبدو من صوتها عجوزا، بالألمانية. محاولات كثيرة طيلة ثلاثة أيام، والمرأة نفسها ترد. ألف تبّا للكلب المسعور. أردت أن أستدرجه ليعود، أبوك يحتضر ويرجو لقاءك، لا تحرمه من النظرة الأخيرة.. كنت سأكذب عليه كل كذب العالم، وأهجر المكان فور عودته. رأيت في المنام أنه عاد، وأن والده لم يمت، أضغاث أحلام. يبدو أنه احتاط للحظة ضعف توقعها فقطع كل السبل.

لم يطل مكوث الشيخ في المستشفى، رحل نجل الخادمة مع أمه، وتخلى عن المبيت معه. أذن له الطبيب بالخروج وعدت به على مضض. كنت قد دبرت مبلغا يعفيني من شرّ التسول لأسبوعين أو أكثر. تكرّمت عليها الحكومة بسكن اجتماعي، أخبرني الفتى أنه ولد بحي فوضوي على حاشية المدينة، وعاش فيه ستة عشر عاما. ولد وكبُر كجرذ وسط العشوائيات، وقد انتقلوا للعيش في علب الاسمنت. أشعر أني معوق دون تلك المرأة، كانت تتولى تنظيف الشقتين، غسل الثياب، وشراء احتياجاتنا.. رُحّلوا إلى منطقة بعيدة. عليّ أن أتولى رعاية الشيخ الآن. خرج من المستشفى إلى شقته، وليس إلى مكان آخر، المقبرة مثلا.. هل سأتمسك بالحياة مثله عندما أشيخ؟ جاءت لتودعنا، أظنها تحمل عاطفة ما تجاهنا، شفقة أو لا أدري. أنا فارغ من أي شيء تجاه أي بشر. غفرت لها نذالتها عندما تخلت عنا من قبل. أخبرتني بأنها تشعر كأن الشيخ والدها، ربما صدقتها، كنت أكبر من أكون ابنا لها، ومع ذلك أحزنني قليلا أننا سنفتقد ظلها الأمومي علينا. كنت والشيخ مجرد يتيمين كبيرين.

تطوعت بأن تطبخ لنا آخر وجبة من يديها، كانت لذيذة، ألذ مما كانت تطبخه لنا من قبل، أكلنا طعاما بمذاق الحب الحقيقي. قالت إنها لن تستطيع خدمتنا بعد اليوم، صارت المسافة بعيدة جدا، لكنها تنوي زيارتنا من وقت لآخر، واعتذرت عن تركنا وحيدين. أنت طيب، قالت لي، وأوصتني بألا أترك الشيخ يموت وحيدا. كنت محبطا، وربما شعرت بالامتنان لها قليلا، لكني نسيتها بعد خمس دقائق من رحيلها.

سألت نفسي كيف أواجه الوضع الجديد، وأنا لا أستطيع أن أتحدى حتى نملة ولا أريد. آمل أن يموت قريبا، وأعده بأني سأحزن عليه كما لو كان عزيزا جدا على قلبي. أأكرهه حقا؟ نقلت التلفاز من شقتي لشقته، يبقى مسمّر العينين فيه طوال النهار، يغفو ويصحو، يصلي في مكانه، أصبح لا يستطيع القيام لوحده.. ثم يعود لمشاهدة كل ما يبث بانتباه، وأحيانا بفرح، يضحك دون سبب حتى من نشرة الأحوال الجوية، أو يعتقد أن مذيع الأخبار يخاطبه أو يسأله فيرد عليه ويدخل معه في نقاش جدي بصوته الجهوري، لم يفقد صوته شيئا من قوته حتى عندما كان في المستشفى.. عالم آخر، أما أنا فأضحك أحيانا، مع أن ذلك يدعو للأسى. لم يبق فيه شيء يصلح.. الإنسان لا شيء غير الذاكرة.

ليت ذاكرتي ممسوحة. الإنسان تنحته التجارب، وأنا مجرد منحوتة مهترئة بلا ملامح، فتات، صنيعة الآخرين وتجاربهم فيّ. وافقت على أن أكون كلب حراسة لأني كنت مهشما، بصراحة لم أتوقع كل هذا العذاب، أحببت أن أعتزل الناس فقط.. أبتعد وأتسلى بانتظار الموت، لا أن أصبح ممسحة لأخطاء الآخرين، وقد فعلها

بـــي مراد. حسنا، لا شيء فيّ يستحق الرثاء. خضت الحياة بكـــل إكراهاتها، اشتغلت زبالا لثلاث سنوات، لم يشـــفع لشـــريد مثلـــي مستواه الجامعي ولا كونه إنسانا، واستغلني من اســـتطاع أن يفعـــل ذلك. نسيت تقريبا كل ما تلقيته في الجامعة، ولقنتني الظروف دروسا أكثر رسوخا. زبال من الباطن، يتقاضى أحدهم الراتـــب ويمـــنحني جزءا منه. حمّلت القمامة فوق الحمير في أزقة القصبة الضيقة، وأكلت بقايا طعام كنت أجده في المزابل، تقيأت أول مرة ثم تعودت عليـــه، نسيت كرامتي للأبد، لا معنى للكرامة وأنت جائع. غريـــزة البقـــاء أقوى. زبال من الباطن يستأجر غرفة مهترئة الجدران والسقف، وينام على فراش قذر.. كنت برغماتيا أكثر من أي أحد في العالم. بشر بلا عدد يقتاتون من المزابل، لم أكن أحسن منهم في شيء، أنا ممن نبت لحمهم من القمامة، بقايا طعام يرميها المترفون حد التخمة من البيوت والمطاعم والفنادق. محتوى قمامة كل منزل يعكس المكانة الاجتماعية لساكنيه. أسارع لالتقاطها قبل أن تتعفن أكثر، عثر بعضـــهم علـــى نقود وأشياء ثمينة، أما أنا فلم يكن نصيبـــي دائما أكثر مـــن بقايـــا طعام أو حذاء متفتق أو سروال أحيل على التقاعـــد أو مـــلّ منـــه صاحبه. وجدت في إحدى المرات كتابا عن السعادة، رميتـــه علـــى الفور، وعدت مع الفجر إلى غرفتي لأستمني على صورة ربة بيـــت خمسينية علقت في خيالي.. حياتي تقتات دائما على بقايا الآخرين.

أكلت جبنا منتهي الصلاحية وفاكهة فاسدة، تعودت معدتي على ذلك واكتسبت مناعة ما. وظل حظي يطالعني أحيانا بالدجاج الطـــازج أو بأكباد الديك الرومي وقوانصه، كنت أقيم حفلة شواء في غرفتي بين أيام وأخرى، وزاد وزني بشكل لافت. بدا أن حظي كان أعلى وأشـــد

كرما لما انتقلت للعمل في شاحنة بحي بن عكنون، فنادق بها حانـــات.. صرت أعثر على عبوات بيرة أو زجاجات خمر ليست فارغـــة تمامـــا، وبعضها لم يفتح أبدا. بدأ الأمر بعلب المشروبات الغازية، وانتـــهيت إلى أن تغمرني سعادة خاصة إذا أتحفني القدر بما أستعين بـــه علـــى نهـــاري الفارغ الطويل. جعلت كيسا خاصا أعلقه على كتفي لذلك الغـــرض، أحيانا أعود به ممتلئا وأضمن تموينا لأيام. كان أقرب زملائي يســـاعدني في ملء الكيس، ولا يلقي بالا لفتاوى زميلنا الآخر. هل كان بإمكـــاني إنقاذه و لم أفعل؟ بقيت مشلولا أتفرج كيف سحقت عجلـــة الشـــاحنة بطن زميلي الأقرب إلى قلبـــي، رأيته، عيناه جاحظتان، وربما لمحت على شفتيه نصف ابتسامة. حمّلني ذلك المتزمت المسؤولية، قال إنـــه كـــان بمقدوري أن أسحبه، وقد مدّ الرجل إليّ يده.. لست متأكدا، حســـدته، أتاه الخلاص مجانيا وسريعا، مثل هدية غير متوقعة. ابتسم لي ومدّ لي يده يودعني، أو ليدعوني للتطهر من الحياة واللحاق به، كان طيبا ويحـــب لي الخير. لا اجتهاد مع الحظ، وعليّ أن أنتظر فرصتي. حاصـــرني الـــزملاء بنظراتهم، كأني أنا من دفعه تحت الشاحنة، وربما شكوا فيّ من البدايـــة. مجرد حمقى، هذا بدل أن يطالبوا بحقوقهم ويخرجوا من حالـــة العبوديـــة المقننة، يرمون بتبعة الحادثة عليّ، كأني الرجل الخارق المنـــوط بـــه أن يتصدى للقضاء والقدر. ترسب في داخلي بعد ذلك ما يشـــبه شـــعورا بالذنب كأني قاتل حقيقي، وطاردتني الكوابيس، أرى المشهد ذاتـــه في شكل مختلف كل مرة. مرّت تلك الفترة بأقل الخسائر، وعدت لا أبالي، لا مرئيا.. صامتا.. أنتظر فرصتي. مات المسكين، وقررت ساعتها تـــرك تلك المهنة نهائيا. زبال بالنيابة أو من الباطن، ليست وظيفة يمكن للمـــرء أن يندم كثيرا إذا تركها.

لن يقدّر لأحد أن يكتب سيرة بهذه القذارة، مع أنها حقيقية، بعض الحقائق رائحتها قوية، وتفضح أي عطر مهما غلا ثمنه. متى كانت آخر مرة اشتريت فيها زجاجة عطر؟ ما زلت ممتنا للزبال الانتهازي الذي اشتغلت نيابة عنه، امتنانا أحمق آخر. تكاسلت في الشهرين الأخيرين من السنوات اللعينة الثلاث، وقد وجد تعيسا آخر استبدلني به، لما قررت الرحيل. تدخّل عند أحد أقاربه في محلات تجارة الجملة بالسّمّار، وأوصى قريبه ذاك بي تاجرا غنيا ومتدينا، ولم يكن في الواقع سوى خنزير. ودّعت غرفتي المهترئة، ووجدت نفسي مرتاحا في عملي الجديد، رغم مشقته، وسعيدا بضمان مكان أبيت فيه دون أن أخشى من انهيار السقف على رأسي إذا سقط المطر. كان المستودع الذي يضمني في الليل رفقة آخرين قصرا حقيقيا قياسا بغرفتي السابقة، لكني فقدت حريتي، وفقدت معها متعة النوم وحيدا وعاريا.

كنت أشرب لا لهدف بعينه، استكشافا ثم تعوّدا، هروب مكلف لكنه مثمر على نحو ما. أنسى به أني أنا، ويعفيني من انسحاقي الداخلي. عانيت كثيرا في سبيل ذلك، وأجد أن الأمر يستحق العناء. كان الخنزير يحقد عليّ ويحجب عني جزءا من مستحقاتي لديه، يمارس وصايته عليّ كأني سفيه، وصفني بالسكير وهددني بالطرد لكنه لم يفعل. أعترف أني نافقته لأسابيع، لم أجد بدا من مسايرته، وربما راودتني رغبة في إصلاح ذاتي.. رغبة خافتة ومتقطعة. ارتدت المسجد القريب، وصليت الجُمع، واظبت على الصوم من قبل، أما الانتظام في الصلاة فأرهقني جدا. نفسي منهكة، وكذلك جسدي، ومع ذلك فلا بأس، لست آثما في حق أحد. كنت

أبقى في الأعياد وحدي، لأن زملائي يمضون إلى أهلهم، ارتاح منهم لليلتين أو ثلاث. باغتني في إحدى المرات أشرب في المستودع، انهال عليّ بالضرب وطردني، محل لطلب الرزق يجب ألا تفوح منه رائحة أم الخبائث، قال لي. تحاملت على نفسي ورجعت أستجديه بعد ساعة واحدة، لم يكن لي مكان أذهب إليه، كررت عليه بعض ما سمعته من خطيب الجمعة، بأن الله يغفر الذنوب جميعا، وألا يكون المرء عونا للشيطان على أخيه المسلم، ووعدته بالتوبة فسامحني. بعدها كان هو والشيطان عليّ، وفهمت أنه قبل بعودتي لأني مؤتمن وأعمل بكل جهدي ولا أطلب الكثير.

لاحظت نظراتهم لي في المقهى، يتوجسون من الغريب الذي حل فجأة بينهم، وتجاهلتهم. ضايقني في البداية أن أكون محل مراقبة دائمة، ثم خف فضولهم، وتعودت أنا على الأمر كما تعودت على كل شيء من قبل. مواهبي في هذا الصدد خارقة. ذلك المكتبي وحده من اكتشف الأمر، خبير في العربدة ويعرف أماراتها جيدا.. أنا أبالغ، لست عربيدا بالمعنى الحرفي. لاحقني مرة إلى مدخل الساحة الكبيرة وتحدثنا، كان التفاهم سهلا، مع أن شروطي صعبة. لا يسأل عن شيء، ولا يدفعه فضوله لارتكاب حماقات من أي نوع، أو توريطي في مشكلات لا دخل لي فيها.. واقترح عليّ أن يخزن عندي في الشقة عددا من الصناديق، وافقت في البداية ثم تراجعت، الحي شعبي جدا، والجيران لن يسكتوا إذا اكتشفوا الأمر.. وإذن لم أستفد من أي سعر تفضيلي، عدا تسهيلات في آجال السداد. كنت قد بقيت بلا مؤونة لشهرين كاملين، مدة قياسية، وقدم لي النجدة في الوقت المناسب. لا حديث بعدها بيننا، يزودني بما أحتاج إليه، وأدفع

له حسب ما تيسر لي من نقود. المكتبـي رجل غير مفهوم، أقصد غير متجانس، واع وعلى درجة من المعرفة، لكنه في ساعة الحقيقة يترك كل ذلك جانبا، ويظهر بكامل انتهازيته. تعامل معي آخر مرة بفجاجة، لم يصبر عليّ كما عودني، واستخلص ديونه مني كاملة، وبدأنا من الصفر. لم أطلب منه أن يدلني على مكتبته، وأظنه كان يفضّل ألا أعرف عنه شيئا سوى أنه يجلس في المقهى، ويلوك كلاما كبيرا أمام جماعته، كأنه يحاضر في الجامعة أو بمنتدى للفكر الحر. يتخذ مكتبته واجهة فقط، التقية ممارسة شائعة عند الجميع، وتجارة الخمور مربحة جدا رغم أنها محاصرة. يعمل دون تصريح، ويجلب البيرة من مصنع على الطريق بين العاصمة والبليدة، بالنسبة لي لم أهتم بما يقبضه من عندي، قد لا يجلب المال لنا السعادة، لكننا نستطيع أن نشتري به النسيان.

لجأت إلى المكتبـي، تاجر الخمر، مؤخرا، وكان مفيدا بصورة لم أتوقعها. أصحاب المبادئ المرنة مفيدون جدا في أوقات الشدة. لم يخدمني مجانا، ومع ذلك أنا ممتن له هو الآخر. أنا رجل مريض بالامتنان حتى لمن لا يستحقونه فعلا. الشيخ مريض وذاكرته ممسوحة، أنا مفلس وعاجز، ومنحته محجوزة في البريد وتتراكم.. قابض البريد زميل دراسة قديم للمكتبـي، وربما يبيعه النسيان خلسة كما يبيعني إياه، والتغافل عن القواعد يذلل المشكلات. قبض الرجل ثمن تغافله غاليا، وأراد فوق ذلك أن أشكره وأحمل له امتنانا لا يستحقه، لم أفعل هذه المرة. أما المكتبـي فنال حق وساطته كاملا، دون تعاطف معي كزبون دائم وغير مثير للمشاكل، أو مع الشيخ ابن حيه الذي تورطت فيه. أعطيتهما موعدا، بعد المغرب، وجلبا

معهما دفترا كبيرا. رأى قابض البريد أن الشيخ المجاهد على قيد الحياة لا يزال، ثم لطخ له سبابته بالحبر ووضع بصمته على دفتــره الكــبير كإثبات على أنه قبض مبلغ المنحة كاملا. لم أتبادل مع القابض أكثر من التحية، ومع المكتبــي أكثر من نظرات احتقار بسبب انتهازيته، رحلا، وتركا لنا الثلث فقط. ثلث يجب أن يتولى كل ما نحتاج إليــه لأيام قد لا تطول كثيرا. بقي من الأثاث ما يمكن بيعه، الأمر مؤجل حتى ينفد ذلك الثلث، أهم ثلث في حياتي وحياته.. لست مســتعدا للعمل من جديد، وفعليا ذلك مســتحيل، مــن يتــولى الشــيخ في غيابــي؟ أحضرت له مؤونته من الدواء، ومن الحفاظات ما يكفيــه حتى موته القريب الذي أنتظره أكثر من أي شيء آخر. يكشر ذلك الشيء في داخلي عن أنيابه كلما فكرت أن أتركه وحيدا وأبحث لي عن مأوى آخر. لا أعلم الحكمة من أن تكون حشرة معطوبة مــن الداخل مثلي تواجه كل هذه الامتحانات الصعبة. لا تطلب الحشــرة البائسة سوى الانزواء بعيدا، تحتمي تحت أي حجر أو في داخل شق بجدار بيت مهجور، كي لا تسحقها الأقدام.

ما معنى أن تكون أولى تجاربك العاطفية مع امرأة بدينة تشــبه كيس شحم؟ كان لدى الممرضة فائض من كل شيء عدا الحكمــة. طاوعتها بالكلام، وتمنعت عليها في ما وراء ذلك بدعوى أني أخاف الله، وقد شوهت كل أحلامي عن النساء. عندما رأيت صور النساء الحقيقيات في مجلات جنسية عثرت عليها في القمامة بعــد ذلــك، ووقفت على تلك المقارنة الظالمة، قدّرت حجم الورطة التي كانــت تنتظرني لو أغراني بها بؤسي والتهمتها. أوشكت أن أفســد حمــيتي العاطفية بفعل متهور غير مرة. لا أسخر منها، الإنسان بجوهره، لكن

قالبها كان يفرض حضوره ولا سبيل لتجاوزه. الحب ورقة رابحة مع النساء، خدمتني كما لم يخدمني أحد من بعدها، اشترت لي سجائر بلا حساب، وثيابا، وأعطتني أقراصا خاصة، تجعل المرء خفيفا مثل الريشة في الهواء، سعيدا بكل شيء من حوله وقد يضحك من أي مشهد حتى لو كان جنائزيا. الآن أفهم في أي حالة كنت أحدثها عن الحب وعن الحياة المشتركة، وأمدح قوامها ورشاقتها كأنها شابة روسية ترقص على الجليد. كنت مدللها في المستشفى، ورأيت زميلاتها يتبادلن الغمز للسخرية منها، وأعترف أن منظرنا معا كان مثيرا للسخرية. جاءتني مرة تشتكي منهن، فأخبرتها أن الغيرة تفعل بالنساء أكثر من ذلك، وأن عليها ألا تلتفت إلى كلامهن. اتفقنا على أن تساعدني على الهرب، أختفي لأيام، ثم أقصد شقة بباش جراح زودتني بعنوانها. ننتظر حتى تُنسى الحكاية، ثم نتزوج وتتدبر هي كل شيء، وأخوها لن يمانع أبدا، يريد التخلص من همها حتى لو طلبها كلب أجرب. لست مذنبا على أي حال، ستنساني العدالة ونكون سعيدين، قلت لها، تقمصت دور الكلب الأجرب، وأكثرت من النباح لما رأيتها مترددة قليلا ساعات قبل أن أستعيد حريتي، لأؤكد لها أني أحبها وعليها أن تنتظرني. في الأيام الأخيرة تجنبنا بعضنا قدر الإمكان لكيلا تكون المتهمة الأولى بتسهيل هروبي.. هل كشفوا أمرها أم ما زالت تنتظرني؟

لست نادما على أني كنت متهورا عندما خرجت، ذات يوم، لأواجه جنون العالم من حولي بما بقي لي من عقل. إني أعتبره أفضل قرار اتخذته في حياتي، على الأقل، بالنسبة لليلة الأولى. لحسن الحظ عاد الماء إلى الحنفيات، وقمت بعمل بطولي لإزالة آثار القحط الذي

مرّ من هنا، وجعلت جحري يشبه شقة عريس ليلة الدخلة. فضل الليل على الناس لا حدود له، كان كل منا قد عزم على التقدم خطوة في جنح الظلام، وفي الحقيقة كانت قفزة هائلة لرجل غرير مثلي في مسائل كتلك. لاح لي نور الشرفة من جديد، وكانت فرحتي وجيهة، وتحالفت الظروف في التمهيد لليلة مُبهجة. خجولة لا تتكلم، ربما ظلمتها في البداية، بادرت بالمجيء، فقدّرت حينها أن لديها شجاعة لا أتحلى بها. لم يكن الكلام مجديا و لم أهتم لذلك، اكتفيت بالمصباح الصغير في غرفتي.. رحبت بها كما يجب، دون أن أدعي كرما لست قادرا عليه، لأن الثلاجة كانت فارغة. ماذا نفعل بالكلام في مواقف مشابهة؟ عالم النساء بديع، أيعقل ألا فرصة أتيحت لي من قبل لاستكشافه؟ أقلقني صمتها. صمت قسري.. بل جدير بالثناء، مثلها أفضل من يمكن أن تبوح له بأسرارك أو يكتشف عيوبك دون مخافة أن يفضحك. ممتلئة وشهية، طازجة كما ينبغي.. تفوقني جرأة وأكثر إقداما مني، أما أنا فخجول وتعوزني روح الدعابة. أبقيت ضوء المصباح خافتا، وضاعت مني فرصة التمعن في ملامحها، قد لا أعرفها إذا التقينا في الخارج، ولن يكون متاحا لي في الشارع أن أتأكد منها بمراجعة أطلس جغرافيتها البديعة. بالكاد استطعنا التفاهم، إشاراتها صعبة وأنا لا أملك سرعة البديهة. كانت في حالة طبيعية، ثم فقدت القدرة على الكلام لأسباب لم أفهمها. اتفقنا على استنساخ الليلة الأولى، وشعرت لأول مرة في حياتي بعاطفة وانجذاب كذلك لأي بشر. قضيت نهاري نائما، واستيقظت بعد الظهر، حلقت ذقني واجتهدت في أن أكون نظيفا وأنيقا، رجلا يمكن أن تشتهيه امرأة حتى وإن كانت خرساء. مررت بأوقات

اعتقدت فيها بأني كنت أتوهم فقط، ألا وجود لنور ولا لخيـــال، أو حتى لا وجود لشرفة من الأساس. تغلبت بيقين وبحماس غريب على خيالات قديمة. الشريحة اللعينة عديمة الجدوى تستحق أن تكسر ألف مرة، ضاع رصيدها مني في مخاطبة تلك العجوز الألمانيـــة، عبـــأت رصيدا آخر، بحثت عن الورقة المطوية والمعطرة، وعن الرقم المـــدون عليها بالحبر الوردي، وشكلته بحماس غير قليل. سمح لي عمي مبارك بإدخال الشريحة في هاتفه. اتصلت، كانت تفتح الاتصال معـــي، ولا أسمع أي رد. كررت المحاولة مرتين خلال دقائق ثم أعـــدت الهـــاتف لصاحبه وكسرت الشريحة. أفادتني خبرتي في الليلة الأولى، وإذا كان عليّ أن أكون ممتنا لشيء في الكون فسيكون جسدها.. كم كنـــت محروما! قصيرة قليلا وشعر ساقيها نابت ومع ذلك اعتبرتهـــا هديـــة حقيقية. وددت لو كان بإمكانها أن ترد عليّ، أن نتسامر مثل غريبين فتك بهما الحرمان طويلا. بدت لي امرأة طيبة، ورأيت الـــدموع في عينيها وأنا أقص عليها بعضا مما كابدته. أول مرة أرى أحدهم يبكي من أجلي. حاولت أن تشرح لي كثيرا، لكني لم أفهمها، لا أدري هل تعيش وحدها أم لا، وأين تغيب ثم تعود لتظهر، ولم أعـــرف حـــتى اسمها.

طاوعتني الحياة قليلا، ثم توقفت عن مجاملتي. من الأشياء القليلة التي فهمتها منها أنها دخلت هذه الشقة في الماضي. اختـــرقني ألم لم يسبق لي أن جرّبته من قبل.. ما زال لدي ترف أن أشعر بالصـــدمة، بالغيرة، بنار لا قبل لي بها. المغفلون يدفعون الأثمان مضاعفة في كـــل مرة. سجّل مراد حضوره بين فخذيها، كانت تأتي عنـــده، كرهتـــه جدا، لا أحتاج أن أكون عبقريا حتى أستنتج ذلك، وهي ليست طيبة

تماما، بل ليست طيبة على الإطلاق، استدلت على القداحة بسهولة في الظلام وجلبتها من المطبخ، وأشعلت سيجارة، وعلى السرير أثبتت لي أن فارق الخبرة بيننا كبير ولا يقاس. كلبة جنس. تعكر مزاجي إلى آخر مدى، أخفت عتمة الغرفة ملامحي، ورأيتها تبذل الابتسامات، وربما أحبت أن تبرر لي لو استطاعت أن تنطق بأي كلام.. من أنا حتى تبرر لي؟ تعودت على إسكات جوعي بالتهام بقايا الآخرين.. ليست بقاياهم شهية جدا، وإنما جوعي كبير لكل شيء. تطوع ذلك الجوع بالذات بأن يسوغ لي انغماسي فيها حتى طلوع الفجر، رغم أن الألم الذي لم أجربه من قبل، كان يخترق قلبي ما يزال.

ابتذال

أواجه الجدار منذ ساعتين بنظرة بلهاء، كأي كائن عديم النفع، وفي حالة ارتخاء شديد مثل أثداء كلبة عجوز. ليست وضعية تناسب من عليه أن يتصرف بسرعة وحكمة، ولكن هذه كل مقوماتي، ولم أدّع يوما بأني رجل أخطأ التاريخ في تقدير مكانته. سؤال واحد كررته بيني وبين نفسي لا أدري كم من المرات، "من سيمشي في جنازته؟" لا أهمية لمن سوف يمشون في جنازته ولا لوزنهم، ومن الأفضل ألا يشيّعه أحد، وأن يمضي إلى أي مقبرة بالجوار راجلا ووحيدا، وعاقدا العزم على ألا يعود ويشعرني بالقرف من جديد. حسنا.. أنا أتحدث عنه كأنه قد انتقل للعالم الآخر حقا، ولا يشخر بقربي طيلة هاتين الساعتين. أخاف أن يكون قد دخل في غيبوبة، وعليّ أن أكمل مهمتي للنهاية ككلب وفيّ لا يترك صاحبه.. المستشفى أولى به، ولا أحب أن يخونني حدسي ثانية، فيعود ويشفى، لأن رجائي بأن أحفر قبره بيدي لا حدود له. مسكين يستحق الراحة، وأنا أيضا أستحق أن ارتاح، لست مؤهلا للاهتمام حتى بنفسي. يتملكني مؤخرا رعب حقيقي من أن أكبُر، يجب أن تتوقف حياتي قريبا، أو أن أختفي على نحو ما، ليس قبل رحيله بالطبع وإلا فسأكف عن كوني كلبا وفيا.. أخاف أن أكبر فأواجه الزمن في الجولة الأخيرة وأنا وحيد. وطّنت نفسي على العيش وحيدا دائما، أما أن أموت وحيدا فذلك فوق طاقتي.

اجتهدت ألا ينفد الثلث الذي أبقاه لنا اللصان ليرافقنا أطــول وقت ممكن، كان بُخلي جديرا بالإشادة، وقد نجحت نسبيا. الشيخ يعيش كفاف يومه، لذا أنفقت القسط الأكبر منــه علــى نفســي. استيقظ فيّ حب الحياة إلى حد ما، خمس ليــال مجنونــة، قضــيتها كعريس جديد، اشتريت عطرا وفاكهة، وأطعمت صاحب الثلــث جيدا طبعا. أُنهكت جدا، كان عملا شاقا.. استكشاف عالم النســاء ليس سهلا أبدا. اختفت بعدها، كما تعودت، لا نور يلــوح مــن الشرفة المقابلة ولا دفتاها تُفتحان ليلا ليداعب الخيال شهوتي. شعرت أني كنت نائما بعمق، وحلمت بإحداهن، ثم استيقظت لأجد سروالي مبللا.. حتى ملامحها بقيت غير واضحة، كأنها مرت في خيالي فقط، ولم أرها حقا.. بالغت في الحذر، وللليل عيوبه هو الآخــر. هــامش المناورة محدود جدا، والموت لاعب جيد في المساحات الضيقة، ومــع ذلك اجتهدت على نحو ما. استعنت بالمكتبــي وكان شهما هــذه المرة فلم يطلب مقابلا لإنسانيته، وأحضرت ممرضا ليثبت الأنبــوب على ذراع المحتضر، ولم يكن عليّ سوى تغيير أكياس المحاليل بعد أن علمني ضبط إيقاع التدفق. أنا بارّ به أكثر من المتوقع، أما هو فلــن يكون له فرصة ليشكرني على ما فعلته من أجله حتى لو أراد.

في الصباح خرجت إلى المقهى، وتركته ملقى على سريره كأي جثة تتنفس. من المرات القليلة التي شــعرت فيهــا بحــاجتي إلى أن يؤازرني أي أحد. وجدت المقهى مغلقا، قطعت الشارع أقصد مقهى آخر، والتقيت بالإمام، وتجاهلني لما ألقيت عليه التحية. أكمل طريقه فتبعته، وطلبت منه أن يزور الشيخ الذي يحتضر ليلقنه الشهادتين، لم يتح لي فرصة، رحت أناديه وأنا أتبعه.. أبعدني عنه كأي ذبابة، بعــد

أن سألني عمّ يمنعني عن الصلاة. أوشكت أن أقول له إن بإمكانــه أن يجلب معه إلى الشقة من يشاء، ودون أن يدفع شيئا.. لا أطلب سوى أن يبقى معي ويشير عليّ بما أفعل. أردته أن يقرأ له شيئا من القرآن، فأنا لا أحفظ إلا القليل، كما أني لم أصلّ منذ تركت العمــل عنــد الخنزير. لا أجرؤ على حمل المصحف.. الليالي الخمس وعبوات الخمر الفارغة في شقتي تحتاج إلى أكثر من توبــة تكتيكيــة. إن شــعوري بالذنب ضعيف، وهذه هي العقبة الكبرى. لم يعِد أي منــا الآخــر بشيء، ذهبت للمسجد قبل العشاء بقليل، توضأت كما ينبغي لعابد حقيقي، وتقدمت حتى أدركت الصف الأول. رآني الإمام و لم يبــد عليه شيء. مجرد إثبات لحسن النية، كما فعلت مع الخنزير من قبل، أردته أن يفهم ما قمت به. ثمن معقول جدا لإنقاذ العجــوز الــذي تتعذب نفسه دون طائل. أخشى أنه كان مثلي، ضالا وتائها، ويحتاج إلى أن يسمع كلام الله حتى على لسان رجل مسح قميص نوم أزرق نجس ثلاثة أرباع إيمانه.

عدت خائبا، وها هو ليل آخر يداهمني، أما هو فيستيقظ كــل ساعتين أو ثلاث، أسقيه ماء، يفتح عينيه بصعوبة ثم يعود للاستغراق في عالم بعيد. نفَسه ثقيل، كمن يصعد جبلا أو يرتقي قمة وهو محمل بالأثقال. قاع الحياة عميق والإفلات منه يتطلب جهدا خارقا. نسيت السؤال الذي رافقني، واحتقرت نفسي، أنا بائس ومختل حقا، والجثة التي تتنفس جديرة بالشكر.. أعاد لي إنسانيتي، ووهبني الله أبا آخــر حتى على هيئة رجل يوشك أن يحتضر. سؤال أكثر حيوية يحاصــرني منذ الغروب.. "من سيحفر القبر؟" لا أعرف مكان المقبرة، وإن كان لديه أقارب يمكنهم القيام بحفره أم لا. ليس له من يسأل عنه. مأساة

أن يموت أحدهم دون أن يشعر برحيله أحد، تماما مثل أي حيوان نفق في البرية. مشاكلي معه بعد موته ستكون أضعاف مشاكلي معه وهو حي. يجب أن يُحمل جثة هامدة إلى المستشفى، ثم تُستصدر شهادة طبية تفيد بوفاة عادية، يأمر بعدها وكيل النيابة بتحرير شهادة وفاة، ومن ثم تصريح بالدفن من البلدية أو لا أدري.. كل هذا وأنا ظاهر مثل الناس جميعا، كأني لا أختفي من شيء، ثم تنهار حدودي مع العالم لأبقى مكشوفا. هذا محال. إن توفي سأتدبر مسألة دفنه مباشرة في المقبرة أو في أي مكان من الأرض، بعيدا عن أي انكشاف. ذلك تحدٍ أبعد من أي شفقة عندي تجاه العجوز المسكين أو وفاء لشبه صديق هاجر و لم يبق حتى أثره.

أفقت عند الفجر، تفقدته ووجدت أنه لم يمت، لن أقول للأسف فالتحديات صعبة. لم يمر وقت طويل حتى دق أحدهم على الباب.. كان الإمام، يرفل في عباءته البيضاء مثل ملاك يقدّر حسن النوايا ويفي بوعوده الضمنية. جلس عند رأسه، كانت عيناه نصف مفتحتين، قرأ القرآن بصوت خاشع. قرأ آيات كثيرة، كان يقرأ وينظر إليّ أحيانا، لا أدري لم تصورت أنه يتمنى موته. قد تصبح الشقة خالية، ويعقد معي صفقة رابحة جدا، ولاحقا سأتدرب على يديه، طرد الجن ليس مهنة لا يمكن تعلّمها. ألبس الأبيض وأصبح ملاكا مثله، وآخذ الحياة التي أهرب منها بالأحضان. أنهى التلاوة، وطلب ماء فأحضرت له قارورة مياه معدنية، قرأ فيها وتمتم طويلا، ثم أوصاني بأن أسقيه منها. ذبلت عينا العجوز مجددا وسافر إلى عالمه، وانصرف الملاك بعدها، تاركا الشيطان الذي كنت عليه يعيش محنته. يوم ثقيل آخر، وأنا أشبه أنثى ضفدع بلغت لتوها سن اليأس، الوقت

يمر و لم يبق للتريث أي معنى. راودتني فكرة أن آخذ الشيخ وأرميه في أي دار للعجزة، وهناك سيعرفون كيف يهتمون به. خرجت مسرعا، تحدثت مع المكتبـــي بائع النسيان، عرضت عليه الأمر بحماس لكنـــه كسر توقعاتي تقريبا. الأمر صعب، قالها ليختم جملـــة اجتهاداتـــه في تثبيطي. رغم ذلك، رأيت أن الأمر ممكن، الرشوة تفتح كل الأبواب، ووضعه لا يبعث على أي أمل، لن يطول به المكوث في دار العجزة، ولن يشعر بشيء، وعلى الأغلب سيموت بعد أيام قليلة.. فقط لـــو يتكرم الموت فيتأخر قليلا.

توارت للخلف كل مشاعري الداكنة، وملأتني الشفقة نحوه، إنه مسكين حقا. خفت صوته تماما، أراه يقلب عينين ثقيلـــتين، وقـــد توقف عن مناداة مراد.. حياته مدبرة وموته قريب. هذه ليلة حاسمة. هل سيقاوم حتى الصباح؟ ما أكثر أسئلتي. أمسى قادة البياع يراقبني، يحوم في الساحة، ويتظاهر بأنه ينتظر أحدا. له حاسة كلب شـــرطة، سألت المكتبـــي إن كنت أستطيع الاعتماد عليه، فلم ينصحني بشيء وقال كن حذرا. لن يكون للشيخ المسكين جنازة ولن يسمع بموتـــه أحد، اختفى عن الأنظار منذ سنوات، ورحيله لن يستدعي فضـــول من نسوه وهو حي. رجل دون مبدأ وحده يصلح لمهمة كهذه، قلت أشجع نفسي لأبدأ ما فكرت فيه. سألته وأنا أطل من نافذة المطبخ.. عمّ تبحث؟ فلم يجبني. أشرت إليه بيدي فجـــاء مســـرعا. كلـــب حقيقي. يحتاج هذا الذي تراه يحتضر، قلت مشيرا للعجوز، إلى قبر.. ابنه سافر وتخلى عنه، وأنا لا يمكنني تولي الأمـــر لأســـباب قديمـــة. الإجراءات القانونية تتطلب وثائق، وأنا دون هويـــة، ولا أريـــد أن أكون أحدا على الإطلاق. استمع إلي في صمت، بقي يقـــدر ثمـــن

الخدمة، أخبرته بفكرة وضع المسكين في بيت للمسنين، رغم أن الوقت قد فات تقريبا.. يجب أن ندعه يموت في سلام، قال بخبث، ثم تركته يفكر. حارس المقبرة صديقه، أفرحني الخبر، وبقي أن نضمن ألا يسأل عن الميت أحد، اعتبره ميتا وواصل حديثه، الخوف أن يعود مراد أو أحد الأقارب ويسأل عن القبر وعمن دفنه. مراد لن يعود أبدا، والميت لا أقارب له، أكدت له بيقين، ابتسم.. وانتظرت المقابل الذي سيطلبه، لم يطلب شيئا. سيكون الدفن في الليل، وندخل من الباب الخلفي للمقبرة، ستكون معنا، وافقت مبدئيا. ألن نصلي عليه؟ سألته، حارس المقبرة مدمن أدوية أعصاب لكنه يصلي أحيانا، قال يريد أن يطمئنني. تبا! استفزني بروده، بدا لي مجرما، قتل وارتكب أعمالا شنيعة. رغبت في طرده على الفور، وكان البديل أن أختفي واترك الشيخ لمصيره حتى يموت، وتتكفل رائحة الجثة بالباقي.

هل بدوت له كمن يملك كنزا؟ طلب مني الوغد مبلغا كبيرا جدا. رصيد الشيخ كبير، قال بنبرة ماكرة، وليس من العدل أن يكون لي وحدي. لم أخبره أننا مفلسان تقريبا، وتركت باب الطمع مفتوحا. خطر لي أن أبدو أمامه حقا كمن يملك كنزا أو ثروة طائلة، ليتعاون معي. اتفقنا أن يتولى كل شيء، وأنا بعيد، سيحفرون القبر ويشترون كفنا، ويغسّلونه.. هذه مهمتي، راح يطمئنني، ثم سألني متى أدفع له. كان العقل يفرض أن يكون جوابي: سأدفع عندما يموت الرجل، لكني أردت أن أترك الباب مواربا مرة أخرى فقلت: لا تخف.. قريبا جدا. رأيته فاترا، شيء ما أطفأ حماسه الأول.. ربما فكر أنها عملية لن تتم، يسكن منذ سنوات طويلة في الحي، وربما يعرف أن العجوز اقترب من الموت أكثر من مرة ثم لم يمت، وإن لم يمت فلا

عملية ولا مال سيقبضه. أصابني الرعب من ذلـــك، قـــد يســـتغل غيابـــي ويقتله ليورطني في مواجهة موته، وحينها سأستعين به حتما، وأكون مطالبا بدفع مبلغ كبير لا أملكه. لا أدري كيف انزلق لساني، سأحصل على كمية من الذهب، وسأدفع لك ما تريد، قلت له بثقة مفتعلة. برقت عيناه، كمية كبيرة؟ نعم.. الصـــفقة لم تـــتم، لكـــني سأهيها قريبا. تحدثنا بعدها لدقائق، ثم انصرف مبديا تعاطفه الكامل مع العجوز المريض مفترضا أني سأصدقه. ندمت قليلا، قـــد يقـــتلني عندما يظهر له بأني وعدته بالوهم، أو يفشي بـــي للشرطة. سمعـــت الشيخ يشخر بصوت عال، ثم انقطع شخيره، فعـــدت أجـــري إلى غرفته، ولحسن الحظ لم يكن قد مات فعلا.

لا شك أن الغراب الذي حفر أول قبر في التاريخ كان سيسخر مني. أي مشكلة هذه؟ يمكن أن تحفر قبرا في أي مكان وتنهي الأمر. تقديم النصائح للآخرين سهل، وذلك الغراب نفسه بقي على الأغلب في العراء للشمس والدود و لم يدفنه غراب آخر. بعد منتصف الليـــل تبدو الحقائق أكثر وضوحا، من يضمن لي ألا يشي بـــي قادة البياع عند من يستخدمه، ويقبض الثمن بعد أن يكتشف كذبتي؟ من يهتم لحشرة مثلي ومستعد لدفع دينار واحد في ســـبيل أن يعـــرف في أي حفرة براز تختفي؟ كان إغرائي له خطوة غبية، غبية جدا. هددته إن حاول مراقبتي مرة أخرى، وأفهمته أن تردده عليّ قد يـــثير انتبـــاه الجيران. ومع ذلك عاد بوجه صفيق، وكل ما فيه يخبرني أنه لئـــيم، وطلب مني أن أسمح له بالمبيت في الشقة. هذا هو الابتزاز بعينه، وفي الواقع كان أول ثمن أدفعه مقابل خطوتي الغبية. اختفى ورجع بعـــد نصف ساعة، يرافقه حارس المقبرة وشريكنا في الحل المفترض لورطتي

الكاملة. لم تكن المرأة التي أحضرها معه سوى ذات قميص النوم الأزرق، الزوجة الثانية المكذوبة للإمام. ليست له وحده. رجال الحي يستفيدون من اشتراك جماعي، ولا أستبعد أن يكون المكتبي وعمي مبارك منهم. تشغّلها عجوز جهنمية الملامح والسيرة كما أتوقع. أوصلتها لباب العمارة كما في المرة الأولى، انتظرت قليلا، ثم رحلت. لا حاجة لي في أن أتجسس عليهما، ولم أتساءل حتى عمّ يفعله حارس مقبرة مع رجل وامرأة من عموم البغايا. قدر الشقة أن تكون وكرا للفجور ولا حيلة لي في مواجهته.

لم يتوقف قادة البياع عن مراقبتي، نظراته لي مريبة وأشعر أني تحت سلطته. أتمنى أن أكون قاتلا لأول مرة في حياتي، بعض الحسابات الخاطئة تحتاج للقتل حتى تُصحح. أقفلت الباب على الشيخ جيدا، وخرجت للمقهى، هذه المرة وجدته مفتوحا. كانت الجماعة الفضولية كلها هناك، يتوسطهم عمي مبارك الذي رجع من غيبته، وتحاشى النظر إلي. ربما ندم على تسرعه، ما كان عليه أن يعلمني بشيء قبل أن يختبر استعدادي الكامل للأمر. من قال إني لست مستعدا؟ خشيت أن يكون قد قضى الأمر من دوني وعاد، بدا متجهم الوجه، وقرأت في عينيه، عندما التقت نظراتنا، كأنه يقول لي: كم أنت جبان! كأني ادعيت الشجاعة أمامه يوما. غمز لي البياع، بما يوحي بأن بيننا سرّا كبيرا، لا أستبعد أن يكون شاذا.. محض كلب، تورطت فيه وزادت الحسابات الخاطئة بيننا. انصرف أخيرا، وخشيت أن يستغل غيابي فيذهب ويقتل الشيخ، تبعته حتى الباب ورأيته يتجه إلى ناحية أخرى. عدت إلى مكاني، صرت أهرب من الشقة، مرت دقائق، وجلس إلي عمي مبارك. سألني بملامح

محايدة متى سأدفع الحساب الذي عليّ له، قريبا جدا، أجبتـــه بـــلا مبالاة. حساب شهر كامل أو أكثر، لا أذكر، أبديت له امتعاضـــي واعتبرتها بداية غير مبشرة. أراد أن يضغط عليّ لأوافق، أنا مســـتعد، قلت له، و لم يرد، ثم ذهب إلى جماعته. انتظرنا دقائق طويلـــة حـــتى انصرف الفضوليون، تظاهرت بأني منكب على جريدة، وغافل عما يدور. كانت نظراتهم نحوي تفضحهم، لكن ما اكتشفته مثير حقـــا، لا أحد منهم أخبر الآخرين أنه تعامل معي. تهامســـت مـــع عمـــي مبارك. غاب في الأيام الماضية ليتفقد المقبرة المهجورة، هناك حيـــث رفض مجددا أن يخبرني قبل الموعد، وإن كان علي يقين بأن بشـــرا لا يعلم سرّه الكبير. أخبرته أنه لا يمكنني ترك العجوز وحده، واتفقنا أن نجد من يتولاه خلال غيابـــي. اشترط أن أدفع لمن يتولاه، وكـــذلك أجرة سيارة التاكسي إلى أقرب مدينة لمكان العمليـــة، وافقـــت و لم أجرؤ أن أقول له إني مفلس. كان خوفي من قادة البيـــاع يـــدفعني للموافقة، استغنيت عن البيرة منذ مدة والمكتبـــــي نظـــر إليّ قبـــل انصرافه كأنني أخلفت معه اتفاقا مقدسا. المال لا يعنيني في شـــيء، والخرساء اختفت صورها، بشعر ساقيها النابت، كما اختفى صوتها من قبل. خشيت أن ينتقم مني، لديه استعداد للقتل رغـــم تظـــاهره بالوداعة. ستنهار حدودي مع العالم، بل انهارت بالفعـــل، أدركـــت ذلك وأنا أجد صعوبة في الخروج من المقهى للعودة إلى الشقة. كنت جادّا في مغامرتي مع عمي مبارك، أردت أن أدفع للبيـــاع ويـــدفن الشيخ وأنتهي منه.. غراب فاشل مثلي يجب أن يدفع ثمن فشله في أن يواري سوءاته؟ وقفت بباب المقهى، وتساءلت أين عليّ أن أذهـــب بعد أن أُتم كل ذلك، وإذا كان علي أن أرحل، ما الذي يجبرني على

دفع المال؟ فلأترك العجوز وأصنع لي حياة جديدة بالذهب.. لا أحد مات وبقي دون قبر للأبد. ارتبكت جدا، وصارت أنيـــاب ذلـــك الشيء في داخلي طويلة وحادة. هممت أكثر من مرة مـــن قبـــل أن أرحل وأتركه، لكن تلك الأنياب كانت تتولى ردعي، وتنهشني مـــن الداخل عميقا جدا. تأكدت من أن قادة البياع يتربص بـــي، باغتني مع عمي مبارك واقفين عند الباب. يريد أن يعرف مع من أتعامـــل، وقد فتّش الشقة من قبل، أحبَّ أن يستدل على الذهب المزعوم بأي شيء قد يعثر عليه.

عدت من المقهى، وجدت العجوز في حالة حرجة، لن يصـــمد طويلا وتقريبا يمكن اعتباره ميتا. إن مواجهة حقيقة ســـاطعة مثـــل الموت ليست صعبة بالنسبة لرجل عاش في الظل، ميتا على نحو مـــا، ولم يرغب يوما في أن يشبه أحدا ممن رآهم على قيد الحيـــاة، ومـــع ذلك فخياراتي محدودة، وعليّ أن أقرر.. أأُكرم الميت بدفنه أم أنقـــذ نفسي؟ خيّل إلي أني سمعت أنفاسه قبل قليل، والحقيقـــة أن نظرتـــه غائمة وفمه مفتوح ولا شيء آخر. لم أستطع أن أحدس ما شعر بـــه لما وافاه الأجل، تأخرت عن الموعد بقليل، وقد واجهـــت الموقـــف ببرود لم أتوقعه. تذكرت برودة أعصابـــي لما مات الزبال الأقرب إلى قلبـــي تحت عجلة شاحنة القمامة، في هذه الحالة المـــوت مبتـــذل ومتوقع أكثر من أي شيء آخر. أحببت أن أمنحه موتـــا رحيمـــا، استعاد قلبـــي طيبته وكاد أن يفعل. أتصور أنه أراد أن يثبـــت لي أن الكلمة الأخيرة تعود إليه، واستطاع برغم ضعفه أن يتخذ قرارا بهذه الأهمية من دوني. كان حرّيا بـــي أن أرافقه لأعيش الحالة معه، كيف لم أفكر من قبل في أن أجربّ الموت ولو مرة واحدة؟ همد تماما وبدأ

جسمه يبرد، وفضلت أن أتركه بمفرده قليلا. من حقه أن يستغرق في اللحظة دون إزعاج من أحد، فالموت أكثر حميمية من الحياة. رحـــل بعد أن أكمل حفاظاته بالكامل و لم يترك لي سوى جثته ومعها آخر كيس أرز كان بحوزتنا، كرم نادر، أنا الوريث الوحيد لميـــت يرقـــد أعوز حتى من دمعة حزن عليه. أتوقع أن تكون الملائكة قد تولـــت تلقينه الشهادة، إن لم تنشغل عنه بميت آخر أكثر أهمية، حظه عـــاثر مثل حظي ويسبقه الجميع إلى كل شيء. شاخ ضميري وســـقطت أنيابه، بقي يتفرج عليّ وأنا أحزم حقيبتي، حقيبة الظهر نفسها الـــتي أتيت بها إلى هنا أول مرة، لكن مـــن دون الكتـــب والحاســـوب. أحسست بأني أخون أحدهم، وإن لم أعرف من هو تحديدا، ومـــع ذلك لم آبه. لم يكن والدي على أي حال، والمشاعر التي أوهمت بها نفسي لكي أصبر عليه ماتت معه بموته. أعترف أني غراب فاشـــل، ويحق لي ألا ألتزم بأي وفاء أنا عاجز عن تحقيقـــه، سأصـــبح كلبـــا وكفى. دفعت الأقساط لمراد كاملة ولأبـــي المُفترض أيضا. هذه ليلة فارقة وتستحق احتفالا من نوع خاص، لو كان ذلـــك المكتبـــــي الشيطان يرضى بأن يبيعني شيئا من النشوة على الحساب. أحتفل بأن أصبحت من جديد محض كلب تخفف من الالتزام. رأيت في طريـــق عودتي من المقهى سيارة شرطة في الجوار، من المؤكد أنهـــا لم تـــأت للنزهة، وقد صار عليّ أن أرحل من هنا. ســـأقتل نفســـي قبـــل أن يتمكنوا مني، ليس بعد الجنون حرام. جهزت حقيبتي منذ دقـــائق، لا وجهة لي لكني سأنتظر حتى يكون السواد كاملا وأرحل. أفكر بـــأن آخذ عمي مبارك وأستعجله لأهزم قدري بالذهب. ليس عليّ سوى أن أترك باب هذه الشقة مواربا ليعرف الجيران في الغد بأن العجـــوز

قد أصبح مجرد جثة نتنة، ثم أعود من حيث أتيت.. قــد أرجــع إلى سرج الغول، وقد اشتقت لأخي عمار، وأزور غابة المــوت حيــث استعادتني الحياة وأجّلتْ موعد الخلاص. وأفكر أن أعود زبالا كمــا كنت لو أتيح لي ذلك، عشت أسعد أيامي في القمامة، معترفا بــأني مجرد قذارة تعيش في مكانها المناسب. إني أعجز عن اتخاذ أي قــرار. خدمت هذا الجثمان خدمة جليلة، وللأسف لن يستطيع ردّ الجميــل بإسداء أي نصيحة مهما كانت تافهة.. اشتقت لخالتي، ماتت هــي الأخرى وتركتني، كان وجودها يسد أبواب الجحيم كلها. أنا مقصر في زيارة قبور من أحبوني بلا حدود وكان عليهم أن يموتوا بســبب ذلك. في خاطري أن أعود من حيث أتيت حقا، بقية العقــل الــتي هربت بها لأواجه جنون العالم من حولي نفــدت ولم تعــد غنيمــة تستحق العناء. في ساحة ذلك المستشــفى، ســأُعلن عــن تــوبتي، وسيعرفون كيف يجعلونني بليدا ومحنطا، لأكون سعيدا دائما. وجب عليّ الاعتذار عن أن الحياة تستحق الهروب إليها، كانــت مغــامرة مغرية، ومع ذلك كان يجب عليّ ألا أكون بتلك الدرجة من الجنون لأخوضها مجددا. قفزت من فوق السور العالي، كــادت أن تكســر رجلي، وخضت ما خضت في سبيل الخلاص من أولئك الشــياطين الذين يتردون مآزر بيضاء ناصعة، ولأستعيد اسمي، وقد فشــلت في ذلك تماما، أما الآن فأحنّ إليهم وأحب أن أعانقهم واحدا واحــدا، وتتملكني رغبة في أن أستعين بهم مجددا ليساعدوني على الاختفــاء.. ألا أكون أي أحد على الإطلاق حتى أنا.. من أنا؟

كانت تلك الممرضة البدينة الإنسان الوحيد الــذي ظلمتــه في حياتي، وتستحق اعتذارا طويلا لأني خدعتها باسم الحب في ســبيل

خلاص وهمي. مشيت خطوات إلى نافذة المطبخ، كان الظـــلام قـــد انتشر، لكني لمحت قادة البياع يقف خلف شجرة كـــبيرة تتوســـط الساحة، يعبث بهاتفه ويتظاهر كالعادة بأنه ينتظر أحدهم. عدت إلى المرحوم، تأملت ملامحه الميتة، وفهمت ألا معنى لأي نشوة عشناها أو سعادة ملأت قلوبنا يوما إذا كنت نهايتنا هكذا. لم يكن خوفي من أن يباغتني ذلك الوغد في الظلام مبررا مادام لم يعرف مكان الـــذهب، ومع ذلك بدأ قلبـــي يدق بشدة. مرت دقائق أخرى، كنـــت قـــد هدأت تماما، ولما سمعت أحدهم يطرق الباب، ذهبت لأفتح غير مبال بشيء، ومن العين السحرية رأيته..

الجحيم يطل من النافذة

مقدمات ساذجة

فاقدا لافتتانه الرّاسخ بمسيرته المهنية كمحقق لامع، صعد درجات السّلم إلى الطابق الأخير متأففا، يقصد مكتب محافظ الشرطة. كان يتأبط حافظة أوراق بها وثائق تافهة، العبرة بالنتيجة، اقتفاء أثر يفضي إلى الرجل المبحوث عنه، لكنه هو -وليس أي أحد آخر- عاد خائبا. هذه ثالث مرة يطلبه فيها خلال عشرة أيام، ليستعلم منه عما توصل إليه بشأن الرجل.. الآن صار يشك حتى في اسمه، ومع طرقه للباب بلغ حد الارتياب في وجوده أصلا. أيعبث به رئيسه في العمل؟ و لم قد يستهدفونه؟ مطيع ومثابر لعشرين عاما، متّقد الحواس مثل كلب مدرّب، وعداواته لا تذكر، محض خلافات تنقضي في حينها.

- أتمنى أن تكون قد عثرت عليه.. أو عرفت وجهته على الأقل.. خاطبه بعد أن ردّ التحية، ثم أكمل كمن يتوقع الإجابة المخيبة: يجب أن نقول لهم شيئا، في النهاية نحن لا نبحث عن شبح.

لم يتفوّه بكلمة واحدة، و لم ينو أن يصرف الأسف ولا الاعتذار بلا حساب ليبرّر إخفاقه. انتظر المحافظ أيّ كلام منه، ثم شغلته عنه مكالمة هاتفية، تخفف من الحرج لدقائق استغرقها في الحديث، ثم عاد ينظر إليه.

- سيدي، وجدت نفسي أمام سابقة، وأخشى أن أقول إنه لا يمكن العثور عليه.

انفعل المحافظ عبد الوهاب شعال ثانية بعد هدوء طارئ، وأشعل سيجارة نفث دخانها بتؤدة وانتظام كمن تعود أن يضبط إيقاع كل شيء. وأعاد الأول ما قاله على نحو آخر لكن هذه المرة بإصرار من يريد الاعتراف بحالة إعجازية:

- لا أثر له يا سيدي.. أو بالأحرى إنه رجل مطموس الأثر، ربما يكون موجودا لكنه لا أحد، وأكمل بعد انقطاع سريع: ماذا أقول؟ ربما كان موجودا، لكنه فعليا غير موجود.

استنكر المحافظ ما سمعه، وبغضب رجل تعوّد أن يطاع، وأن يحقق النتائج الملموسة ويكره التناقضات والوقوف عاجزا أمام الألغاز خاطبه متعجبا:

- أيكون قد مات.. اختطِف.. أم انتحر وتحللت جثته كأي كلب نفق دون أن ينتبه له أحد؟؟ ما قصته وأين اختفى هذا الـ (لا أحد)؟

جعل يسهب في التفاصيل متجاوزا النظر مباشرة في عينيه. في الحي حيث يُفترض أنه كان قاطنا، تناقضت أقوال جيرانه، يعرفونه ولا يعرفونه، اختلفت شهاداتهم حول اسمه وشكله اختلافات غير مقبولة، يعرفه الجميع ولا يعرفه أحد. كان انعزاليا يتفادى الجميع وأحيانا لا يُرى لأسابيع، مصابيح شقته مضاءة لكن لا صخب بالداخل، صاحب المسكن، الميت، كان رجلا مسنا وخرفا وله ابن وحيد مهاجر في ألمانيا، وهو من أجر له الشقة دون عقد. وعندما

فتشنا الشقة، كانت نظيفة ومرتبة، بقايا طعام على طاولـــة صـــغيرة وكيس أرز، وقداحة ومنفضة سجائر، وأشياء تافهة أخرى منثورة في أرجاء غرفة النوم بينها زجاجة عطر فارغة، أما باقي الغرف ففارغـــة من أي قطعة أثاث ومغلقة. والغريب أننا لم نعثر على أية بصـــمات كأن من كان يعيش فيها مبتور الأصابع. ذهبت لأســـأل صـــاحب دكان قريب، ثم صاحب مقهى مجاور، كلّ يقول إنه رآه مرات قليلة، غير أن المحير هو أنهم يتحدثون عن أناس مختلفين.

توقف ونظر مليا في عيني المحافظ عبد الوهاب شعّال ليعرف إن كان عليه أن يواصل، لم يشر إليه بشيء، فأكمل يقول: المشكلة أننا لا نملك صورة حديثة له، فقط واحدة قديمة من سن المراهقة، ونسخة بالية جدا من بطاقة هوية منتهية الصلاحية منذ ثماني سنوات وملفهـــا ضاع في الأرشيف وهم ينتقلون إلى المقر الجديد للبلدية التي ينحـــدر منها. سيدي المحافظ، لقد تساءلت غير مرة إن كان يتنكر أحيانـــا، فهو -بحسب من يصفونه- مرة رجل أشيب في السبعين يلبس نظارة سميكة ويعرج عرجا خفيفا، ومرة ثانية أربعيني موفور الصحة لكـــن وجهه شاحب كأن وراءه تاريخا من الانكسار. ولما سألنا مصـــالحنا عن وورد اسمه في قوائم المشتبه بهم أجابوا بالنفي.. كما أن لا جواز سفر باسمه، وشرطة الحدود أكدت أنه لم يخرج أحد مـــن البلـــد أو يدخل إليها بهذا الاسم طيلة العشـــر ســـنوات الماضـــية، وفي وزارة الداخلية أخبرونا بأنه يوجد العشرات ممن يحملـــون هـــذا الاســـم وبمعلومات مشابهة..

- آه.. معلوماته؟
- تقريبا هذا كل شيء سيدي..

- هذا لا شيء يا رفيق، أنتم تلعبون.

لا اسم في المحاكم، ولا في قوائم المفقودين، ولا أثر له في المستشفيات وحتى في الوفيات وتصريحات الدفن.

توقف قليلا، التقط أنفاسه، ورفع نظره إلى المحافظ:

- قد تسخر مني إن أخبرتك إلى أين أوصلني في التحريات عنه.

- ماذا؟

مسح جبينه، وقال يخبره، برغم خجله، بأنه ذهب إلى إمام مسجد التقوى القريب من حيّه وسأله عنه فلم يؤكد له شيئا، واستفسر عمّ إذا كانت الجن يختطفون أحدا من الناس. أطلق عبد الوهاب شعال ضحكة مريرة وضرب بقبضة يده على مكتبه.. توقف لست في مزاج يسمح لي بالضحك، هل تلبّسه عفريت وطار بجسده؟ هام في الشوارع والمدن كالدراويش؟ من هو وأين يكون؟

طلب الإذن بالانصراف وخرج بعد أن ألقى التحية، وطلب قبل ذلك إعفاءه من مهمة التحري عن هذا الرجل بالذات. يكره المحققون الوصول إلى الطرق المسدودة، وظيفته أن يحل الألغاز، لكنه فشل. أصر على طلبه حتى بعد أن حذره من إحراق مسيرته الذهبية في استعلامات الشرطة. نزل الدرج، وعند الباب وقف ينظر إلى كل من يمر أمامه، ويمعن فيه، كان يجد في كل إنسان يراه شيئا من الـ (لا أحد) الذي وصفوه له وأعجزه العثور عليه، كل واحد منهم فيه شيء منه، والـ (لا أحد) قد يكون بعضا من كل أولئك الذين مروا وأشخص فيهم بصره، كأنه ذاب في الجموع.

يعرفه المحافظ منذ مدة طويلة. ليست له الحماسة الكافية

لإحداث اختراق في القضية، لذا قرر أن يتركه يرتاح قليلا، متوقعا أن يعود بشكل أفضل. منذ تلقى التهديدات حول قضية نهب العقار، ثم الأمر بوقف التحقيق، قبل أن يغلق الموضوع نهائيا، فقد الحماس للعمل. البلد معجون بالفساد، وذلك ليس بسرّ، ورغم علمه أحس بطعنة.. أن يكون بلا حماية، القلب ليس آلة لا يصيبها الوهن، وقد عاش حالات مشابهة كثيرة، وإن لم تصل لحد تهديده جسديا، لكن هذه المرة طفح الكيل. أخبر المحافظ بأنه يعتزم تقديم ملفه لطلب التقاعد، أو حتى وضع استقالته، وإهمال الوظيفة ليُطرد بسبب التخلي عن المنصب إن رُفضت. الهروب حيلة الجبناء، لا أحد اتهمه بذلك من قبل، غير أن الخراب عمّ في النفوس و لم تعد هناك جدوى للصراع على أي صعيد. الحياة صعبة والتطويع مؤلم، وأحيانا مهين، فهم ذلك كله، وهو يعرف الآن جيدا حدود القيام بالواجب لمن لا يزال يتمسك بالشرف. زملاء من دفعته أصبحوا أثرياء من الوظيفة، تصالحوا مع الخراب، ولما وجدوا أن منع الشر مستحيل، اعتبروا أنه من الغباء ألا يستفيدوا منه. فيما بقي هو يقاوم الموجة العاتية، لكن لكل شيء حدود. حدود قيامه بالواجب هي ذاتها النهايات التي يصاب عندها القانون بالشلل. الرؤوس الكبيرة تحتاج في ردعها لأكثر من ضابط متحمس أو قاض شريف يحفظ قانون العقوبات عن ظهر قلب.

كان يجب خوض مغامرة فكّ الألغاز الكبيرة، لذلك راهن عليه المحافظ وأبدى معه صبرا غير معتاد. فكّر ليومين و لم يتوصل لقرار. قضية بسيطة لكنها محيرة وقد لا تستحق أن تحظى بأي اهتمام خاص.. الانطباعات الأولية خطيرة، وقد تجعل المحقق سجينا لها

وتضلله. شيء ما يحيّره: ما معنى ألا يجد ما يستدل به على رجل كان يعيش وسط حيّ شعبـــي ثم لا يعثر على دليل واحد يوصله إليــه؟ وتكون أكبر غنائمه، بعد ذهاب وإياب، أقوال متضاربة؟ خمــن أن يكون أمام رجل خارق استطاع تضليل الجميع. من قتل الشيخ؟ لكن هل مات مقتولا حقا؟ رجح الطبيب الشرعي أن يكون سليمان بــن نوي، سبعة وثمانون عاما، قد مات بالسكتة القلبية، قبل أربعة أيــام، وكتب في تقريره ألا أثر لعدوان على الجثة. تعلم رفيق ناصري مــن تجارب سابقة ألا يأخذ كلام الأطباء الشــرعيين علــى أنــه فــوق الشكوك، وبالتالي فقد اعتمد على ما ذُكر من أجل ترجيح فرضــية على أخرى لا أكثر.

في صباح خميس غائم من شهر يناير، أبلغ مخبر سري الشــرطة بوجود جثة لشيخ في شقته بالطابق الأخير في العمارة الرابعة علــى اليمين من مدخل حي مائة مسكن المحاذي لمحطة القطــار بالرويبــة. أثارت الرائحة النتنة انتباه الجيران، وكان الباب مغلقــا دون قفــل فدخلوا ورأوا جارهم جثة بدأت بالتحلل وقــد تلونــت بــالأزرق الداكن. عُثر على المتوفّى-الضحية ممددا على أريكة طويلة، التلفــاز أمامه يصدح بصوت القرآن، وأنبوب موصول بكيس محاليل فــارغ مثبت على ذراعه. الضحية-المتوفى، سليمان بن نوي، مجاهد من برج منايل، له ابن وحيد يدعى مراد، لا أحد يعرف كيف تركه وذهب. كان مراد يسكن الشقة المقابلة لشقة والده، استأجرها من صاحبها، على الأغلب، بثمن بخس. رجل يعمل في شركة بالجنوب، كانــت مشاكله مع الجيران كثيرة، يجلب نساء لشقته، وفي مرة ألبــوا عليــه الأطفال والنساء فحاصروه حتى جاءت الشرطة، خرج بفضيحة و لم

يعد من يومها. أما مراد فخطب فتاة من أقاربه، وقبل موعد الزواج بأسبوع، فسخ الخطبة، وبعدها بثلاثة أشهر غاب و لم يره أحد.

ظل سليمان بن نوي يواظب على الصلاة في المسجد، قبل أن يقعده المرض ويلزم بيته منذ نحو عام. كان ودودا مع الجميع، ولا تُعرف عنه عداوات أو أعمال يمكن أن تقود للانتقام منه بأي سبيل. لا أثر لما يريب بالشقة، وثائقه على حالها، ولا شك أن الجريمة لا تتعلق بالسرقة، وإن لم يعثر على أي مبلغ في المكان. لم يحسم رفيق أمر اعتبار وفاته ناجمة عن جريمة، وانتقل اهتمامه الأساسي للبحث عن الشاب الذي عاش معه الأشهر الأخيرة من حياته. قال أحدهم إن آخرة مرة رآه فيها كانت قبل أسبوع، أي ثلاثة أيام من الوفاة، بينما قال صاحب مقهى هناك، ويدعى عمي مبارك، إنه كان مسافرا في الأيام السابقة لوفاة الشيخ ولا يعلم شيئا، أما المخبر المكلّف بحي المحطة، عين الحكومة التي أصابها العمى، فاكتفى بالصمت جاهلا ما كان يدور حوله. عندما رأى جثة سليمان بن نوي، بدا له أن الموت تأخر عنه كثيرا، هزيل ووجنتاه بارزتان، وكان بحاجة إلى أن يموت أكثر من مرة. على جدران غرفة الصالون، حيث وجد، كانت صورته معلقة على الجدار، بالبذلة العسكرية يحمل سلاحا ويقف إلى جوار آخرَين، وعلى جدار مقابل، صورة أخرى حاجباه كثان ووجهه فيها ممتلئ وعفي، وشارب الرجولة أهم ما يميزه.

قال الجيران إن الشاب الذي كان يتولاه صديق لمراد، أو قريب لهم جاء من بعيد، في حين قال آخرون إن الشيخ كان يعيش بمفرده، وأنهم لم يروا أحدا يخرج أو يدخل إليه. انتقلت المرأة، التي كانت تخدمهم، من مسكنها الفوضوي منذ مدة. توفي زوجها داخل ورشة

للحدادة، ودون تأمين، لم تحصل على أي تعويض، وواجهت ظروفها الجديدة بالخدمة في بيت عمي سليمان كما كانت تـدعوه. قالـت سعدية لرفيق، وقد استعان بقوائم المستفيدين من الترحيل لدى مصالح البلدية لمعرفة اسمها، لما سألها عن الشاب وإن كان يمكن أن يقتله، إن ذلك مستحيل، وإنه طيب.. كان يتذمر من رعايته، لكنه لم يتخـل عنه، وقد أدخله للمستشفى عندما ساءت حالته. سكتت قليلا وبدا أن حزنها على الشيخ حقيقي، ثم أضافت إنه هدية من الله إليه، رعاه كما يجب أن يرعى ابن والده أو أكثر. الشيخ المسكين كان مريضـا وموته منتظر بين يوم وآخر. أما عن اسمه فقالت إن المرحـوم كـان يناديه مراد، وأنها لم تكن تراه دائما، ولم تتبادل معـه الحـديث إلا مرات قليلا. بدت له صادقة ومحايدة إلى أبعد حد، وإن ظهر أنهـا لا تخفي تعاطفها معه.. أصغر من أن تصلح أُمّا له، كـل الاحتمـالات واردة، ومن المؤكد أنها ستعرفه بسـهولة إن رأتـه مجـددا أو رأت صورته. كانت سعدية تتولى كل شيء، وحديثها عن لقاءات قليلـة معه يعوزه الصدق الكامل، تريد أن تتفادى إدخالها في متاهة تحقيـق جنائي. افترض رفيق أن يكون هو مراد نفسه، وهرب مـن صـدمة وفاة والده أو لأي سبب آخر، لكنه ألغى ذلك الافتراض لمـا سمـع إفادتها، ولاحقا لما أكدت إدارة شرطة الحدود خروج المسمى مـراد بن نوي من البلاد.

ظهر اسم مراد في قوائم المغادرين، وبحث رفيق عـن طريقـة لإبلاغه بوفاة والده دون جدوى. رحل قبل عام إلى ألمانيا، تخلى عن والده في الرمق الأخير، وهو فعل جدير بالاستنكار الشديد لمن يملك الوقت وترف الشعور بالمفاجأة من أي شيء جديد يصدر عن البشر.

الحكومة، ومن واقع عطفها الأمومي، تولت دفن الشـــيخ الراحـــل. تجمّع الجيران مذهولين، وأُبعد الأطفال عن المشهد، بينما حمل أعوان الحماية المدنية الجثة التي بدأت بالتحلل إلى المستشفى. وحضر مراسل إحدى القنوات لينال السبق، بدا مندفعا و لم تؤهله خبرته المتواضعة في أن يحظى بتصريح مهم واحد. في المساء قرأ بعض المشاهدين الخـــبر بأقل درجة من الاهتمام في شريط أسفل الشاشة بينما كـــان يُبـــث إعلان عن فوطة ألويز المصممة لمنع التسرب عنـــد النســـاء. قضـــى الطبيب الشرعي ليلته أرقا، الاهتمام الزائد يحمّل الهـــمّ للقلـــب، و لم يحدث أن أعاد تقرير حرره الحياة لأحدهم من قبـــل، لـــذا كانـــت المكاسب المتوقعة من وراء عمل روتيني كهذا محدودة جدا. ذهـــب التقرير لجهة ما، قبل أن يُقبر في الأرشيف، تماما كما ســـيدفن مـــن كُتب عنه. في الصباح أعيد النعش للحي، تولوا في المستشفى تغسيله والكفن على حساب الحكومة، صلى عليه الشيخ حســـان دفّـــاف الجنازة بمسجد التقوى، ودعا له بقلب نصف خاشع، وكـــان ممتنـــا للموت لأنه غيّب شاهدا محتملا، الله يستر عباده. مرّت أمام عينيـــه، والصندوق أمامه، غشاوة زرقاء وامتزج في نفسه الحنين والاشـــتهاء، حاول أن يتقمص توبة غير صادقة لكنه فشل. الزمن كفيـــل بكـــل شيء، وسيرةٌ نقية تحتاج إلى اختفاء جميع الشوائب.. أين ذهب ذلك الذي لم يعرف اسمه أبدا؟ تمنّى أن يختفي إلى الأبد، أن يضمحل، وأن يبقى شبحا كما عرفه. سيرة نقية تفتح له طريق المجد، لـــيس ممـــن يطلب دنياه بدينه ولكن السعي نحو المعالي فضيلة، رُشّـــح لمنصـــب عميد أئمة المدينة، وسينتقل لأكبر مساجدها، العميد توفاه الله، وهو الأقرب لخلافته. أجهزة الأمن تزكيه وتشكر تعاونه، وتبدو طريقـــه

ممهدة. أوصى بعض الطيبين من الجيران تاجرا متنقلا من برج منايـــل بأن يبلغ أهل الفقيد إن كان له من أهل في مدينتـــه الأولى. جهـــد عبثي، عاش بعيدا ولن يتذكره أحد. شيّعه عشرون رجلا أو أقـــل، كان اثنان منهما قد تطوعا لحفر القبر وساعدهما عاملان من البلدية، مجاهد ويستحق ألا يفضحه الموت أكثر وألا تبقى جثته محل اشمئـــزاز دائم. ليست نهاية سعيدة على أي حال.. الموت وحيدا، ودون دمعة حزن من أحد ليس مما يمكن أن يفتخر به في الملأ الأعلى. حظي بقبر أخيرا، وتحققت مقولة «ألا ميت بقي دون قبر للأبد».

يحرس المقبرة رجل اكتفى بربع عقل ليعيش، الحياة مجنونـــة ولا تحتمل الوعي الزائد، سبق وأن دخل شقة مراد، وقد ارتادها منذ زمن ليس بالبعيد. الصمت درع قوي، الحكومة فضولية بطبعهـــا وقـــد تواصل التحري، والكل غني عن السؤال. منذ أن وعى سمع النـــاس ينادونه «الأعمش»، أما في شهادته فدُوّن اسم آخر يشعر ألا علاقـــة له به. الإنسان ليس حرا حتى في اختيار الاسم الذي يعجبه، قال مرة لصديقه الوحيد، المخبر السري المكشوف لجميع سكان حي المحطـــة. كأن مشكلته الأساسية التي يواجهها في الحياة هي اسمه. يعيش حياته منسيا، في غرفة بالمقبرة، حيث دوامه وإقامته الدائمة، ويتآلف مـــع الموتى بشكل جيد، يزور والدته وإخوته أحيانا، ينفق عليهم بكـــرم، ويعود ليلعب الدومينو مع شباب حتى وقت متأخر من الليل. يتيح له عمله فرصة لانتقام رمزي. غير بعيد عن المقبرة يقيم أولئك المرفهون في فيلاتهم، يخرجون بسياراتهم كل صباح ليكسبوا المزيد من المال، ثم ليعودوا في الليل متأخرين بعد أن يسهروا مع عشيقاتهم ويحـــدثونهن عن أن المال لا يجلب السعادة، وتقصد بناتهم النظيفـــات المـــدارس

وزوجاتهم العابسات يمضين إلى مزيد من الإنفاق لنسيان كم أن الحياة برفقة أزواج خائنين شاقة ومريرة.. وهو جالس عند بوابة المقبرة يرى كيف أن حياتهم تتقدم بسلاسة بينما يتجمد زمنه في انتظار أن يلحق بمن يرقدون في الداخل، فقط عندما يموتون يكون متاحا له أن يكون سيدا عليهم، تبتلعهم الأرض وينساهم الجميع ليكونوا تحت رحمته. نصف صاح، يعقد الصفقات إن شاء ليتربّح من بقايا أجسادهم التي نبتت من سحت. روية، حيث المصانع والفيلات، مقبرتها الأكبر هي ميدان لانتقام آخر يمارسه ولا يعلم به أحد سواه. ليس له حساب مع المدفون وليس موضوعا لانتقام مهما كانت درجته.. وقد شعر بقليل من الحزن عليه، عرف من عدد المشيعين أي حياة عاشها الراحل وأي مكانة له بينهم.

بعض سكان الحي، صاحب المقهى وجماعة من أصدقائه ومن ضمنهم الشيخ حسان دفّاف، قاموا بتضليل التحقيق، بقصد أو بغير قصد، لما أدلوا بشهادات متناقضة أتبعوها بابتسامات سخيفة، والمخبر اللعين المكلف بالحي لم يفده بشيء. صرحوا بما يحيله إلى بعضهم البعض، وبدا أنهم يستهزئون به. لا يجب أن يكون المحقق حسن النية، ومع ذلك اعتبر ذلك مجرد تشويش عارض، وانتهى في الأخير إلى لا شيء تقريبا. كان موجودا، لكن لا أثر على وجوده السابق، أيعقل ألا يعرفوا حتى اسمه؟ وألا يتفقوا على ملامحه ويتباعدوا في تقدير سنه إلى حد مثير للسخرية؟ عاد وبقي ممددا على سريره حتى الليل، وكان عليه في الصباح أن يطالع المحافظ بما استجد، ما الذي استجد؟ لا معلومات حاسمة. فتح النافذة فدخل هواء بارد، وفكر أن عليه أن يتوقف عن خداع نفسه، هذا اللهث الذي لا نهاية له وراء كشف

سر جديد في كل مرة، والاستغراق في العمل حتى أذنيه.. من أجـــل ماذا؟ لا يجد أحدا بانتظاره في المساء، ويقضي نهاية كل أسبوع خاويا كالريح.. كالقصب.. يهلك نفسه في العمل لينســـى أنـــه وحيـــد، ومحروم على نحو قد لا يكون سبقه إليه أحد. يملك فرصة للراحة، لم يستفد من عطلته السنوية منذ ثلاث سنوات، وقـــد أصـــبحت الآن ضرورية. هذا حديث كل ليلة.. يراجع حياته طويلا لينام ويستيقظ في الصباح باكرا متوجها إلى عمله كأن كل ما أوصته به نفسه كان كلاما لا معنى له. تنتظره هدى، وهو يعاند قدره معها كأنه يُجرّ إلى الموت جرّا. أغلق النافذة، سرقته سنة من النوم، ثم عاد يفكر. كـــان إشفاقه على الشيخ شفافا وخفيفا، بينما استأثر الشاب الذي كـــان يعيش معه حتى وفاته بكل اهتمامه. ليس البحث عن كشف جريمـــة مفترضة تحديدا ما كان يشغله، بل من أين جاء وأين اختفى، وكيف صار في أعين الناس (لا أحد)؟

أحدهم يخفي سرّا

- أليس علينا أن نسأل أولا من أين جاء ذلك السيد حتى يسهل علينا معرفة سر اختفائه بعد ذلك؟

قال عثمان لاقوش (La gauche) بنبرة هادئة وواثقة، مجيلا بصره على البقية المتحلّقين حول الطاولة ذاتها منذ ساعة كاملة وسط مقهى عمي مبارك. لم يحاول أحد منهم أن يجادله في وجاهة السؤال، الرجل طويل لسان ومعجمه زاخر وتاريخه مع الجدل لا ينتهي. وقد أصبح حاد الطبع مؤخرا لأسباب لم يفصح عنها. انتسب إلى الجامعة بعد أن حصل على البكالوريا وعمره ثلاثون سنة، بعد سنتين هجرها لأن خريجيها أضحوا في نظره مثل ضحايا التسرب المدرسي، وبزعم أن الفلسفة يجب أن تكون منهج حياة لا مواد تدّرس ويمتحن فيها. عاد ومارس السياسة، ورأى في نفسه زعامة يجب أن تأخذ فرصتها، ثم استسلم للواقع في الأخير وفتح مكتبة وعاش على ما تدره عليه.

"أنا لا يهمني من أمره شيء.. فليختف في الجحيم" اعترف لهم عمي مبارك كمن يفشي سرّاً، وأضاف هامسا: ما يهمني حقا هو حساب الشهر الذي لم يدفعه لي، إنه لئيم.. رحل قبل يوم واحد من موعد استحقاق دفع الدين. ساد الصمت مجددا. انتهت جلسة قالوا فيها كل ما يمكن أن يقال، وفي ما بعد ظهر هذا اليوم عليهم أن يقرروا كيف يتصرفون بشأنه: أيبلغون السلطات أم يتجاهلونه

ككلب غاب ونفق في أي مكان مجهول؟ اختفى قبـــل أســـبوع و لم يظهر له أثر.. حسنا، ربما يكون قد سافر أو غيّر محل إقامته، وهـــو ليس مجبرا على طلب الإذن من أحد، لم يكن صديقا لأي منهم، بل إن أحدا منهم لم يجالسه يوما ويحاول التعرف عليه، وهـــو لم يتعـــد معهم حدود التحية والابتسامات الفارغة.

بالمقهى شبه الخاوية ضوضاء قليلة، عمي مبارك رجل بخيل، لم يجار المقاهي وصالونات الشاي العصرية بتركيب الزجـــاج وتجديـــد الديكور وتأثيث مقهاه بما يلزم. مجرد مقهى منسي بضاحية منســـية والحياة تسع الجميع. مسّد الشيخ حسان دفّاف لحيته ثم قـــال لهـــم: يقول الحق تعالى: "ولا تقف ما ليس لك به علم"، ومع ذلك، وبنية حسنة، أرسلت من يسأل عنه جميع أئمة مساجد المدينة وأعطيتـــهم أوصافه كما سمعتها منكم بالأمس، لا أحد منهم تعرف إليه. سكت قليلا ثم قال بنبرة المستسلم: أرى أن نترك أمره لله، أنا لم أره يومـــا يصلي خلفي في مسجد ضاحيتنا هذه، ولا يسعني إلا أن أدعو له الله بالهداية، وبالرحمة إن كان قد أخذه عنده في جـــواره. وانســـحب الشيخ في حينه دون أن يرقب أثر ما قاله عليهم. لم يـــتح لعثمـــان لاقوش أن ينتفض في وجهه، لكنه قال لما انصرف إن الاستعانة بذلك المتزمت كانت خطيئة، وأنه يرى في الله ملكية خاصة له أو ربّا لـــه وحده دون سائر البشر.. ارتحنا من تجهمه، ثم ختم بالقول: هـــؤلاء يعتقدون أنهم يتواضعون بالجلوس في مقهى كهذا والاختلاط بالناس.

كان يجلس أمام الطاولة ذاتها قرب النافذة طيلـــة عـــام كامـــل، كانت محجوزة له، يدخل خافضا بصره، غير آبه بأحد يتأبط جريـــدة مطوية، وعلى الهيئة نفسها دائما بســـروال الجينـــز الأزرق الباهـــت

وبالسترة السوداء، وبلحيته الخفيفة التي لا تكبر أبدا وببقايا شعر أعلى رأسه تشي بأن لقب أصلع صار حقا عليه. كنت غبيا، كيف لرجل تحريات أن يستهين بأمر رجل كهذا؟.. كل ما آمله ألا تكون وراء اختفائه كارثة مصرع الشيخ.. أخشى من تهمة التقصير؟ كذا استرسل المخبر في الكلام وهم يستمعون لكلامه المكرر بملل. "قادة البياع" هكذا يدعونه في غيابه، من سكان الحي القدامى، كان مشروع إرهابي فاشل، تاب فشمله قانون المصالحة، ثم تطرّف في الإخلاص لأجهزة الأمن فارتقى لرتبة قوّاد. واصل يقول: في صباح مثل أي صباح بلا معنى رأيناه.. ثم اختفى دون إشارة أو أثر. كنت أسميه السيد لا يبالي. تتبعت مرة خط سيره وأظنه انتبه لذلك، لم يلتفت إلي و لم يبد عليه الانزعاج لكني متأكد من أنه ضللني، فقد ذهب إلى محطة الحافلات عند أقصى المدينة، وبقي واقفا هناك لساعتين كاملتين، كل الخطوط بها حافلات وكل الناس تركب وتنزل وتذهب وتجيء وهو واقف كصنم، تعبت فتركته وعدت أدراجي..

تكلم قادة البياع كأنه يكتب تقريرا مفصلا لمسؤوله المباشر في الاستعلامات. و لم يتردد عثمان لاقوش في وصفه بالثرثار الكبير، ثم قال له: دعك من التفاصيل التافهة ولنقرر شيئا.

- نقرر ماذا؟ سأل عمي مبارك
- لا أدري.. أجابه عثمان محبطا.

أتاح ذلك لقادة البياع فرصة أخرى لاستئناف الحديث، وأخبرهما أنه وبعد انصرافهم من جلسة الأمس زار جميع المرضى الذين يرقدون في مستشفى المدينة لكن أحدا منهم لا يشبهه، ثم ذهب بعدها لحارس المقبرة وسأله فلم يجبه بما يفيد القضية (نطقها

بتفخيم كأن المسألة تتعلق باختفاء أهم رجل على ظهر الكوكب). والدفن لا يتم إلا بتصريح مختوم. قال لهم: وجدته نصف صاح، إنه يتعاطى الحبوب أحيانا..

قطّب عمي مبارك حاجبيه لما سمع ذلك وعلق مستغربا: لا يبدو عليه ذلك أبدا!

- هل تريد لرجل أن يعيش وسط مقبرة أن يبقى بكامل عقله؟ المهم، لقد اعترف لي بأنه يسمح لصديق له بأن ينبش قبورا لا يزورها أحد ويأخذ منها عظاما أو لا أدري ليبيعها للسحرة والمشعوذين، لكن "دفن أحدهم ومن دون علم السلطات" هذا مستحيل حتى لو تعاطيت صيدلية كاملة.. هكذا أكد لي في حزم. مال بنصفه العلوي إلى الأمام وطأطأ رأسه وقال لهما بصوت لا يكاد يسمع: سأخبركما بسرّ.. لقد ذهبت إلى تلك المرأة، تعرفانها طبعا لا تتصنعا البراءة أمامي، تلك العجوز التي تشغّل النساء والفتيات، وصفته لها وصفا دقيقا وشاملا فقالت إنه لم يأت إليها رجل بمثل أوصافه أبدا.

وصل الجميع لمرحلة اليأس ودخلوا في دوامة التفكير الدائري، وقال عثمان لاقوش مشككا في حالة اختفاء ذلك السيد، ودون أن ينتبه أن ذلك تشكيك في وجوده من الأصل:

- أطالع الجرائد يوميا، و لم أقرأ أبدا خبرا عن حادثة انتحار في جهتنا أو حتى بلاغ عن مفقود.
- أليس قبل أن تكون له عائلة تبلغ عنه إن لم يعد إلى البيت؟ عقب عمي مبارك وأضاف يؤكد على وجوده كأنه الوحيد

الذي رآه وأن الباقين يكذبونه: كان يذهب إلى السوق الأسبوعية، أنا رأيته أكثر من مرة يحمل أكياسا بها فاكهة وخضر، ويتردد على مقهاي هذا في أوقات متفرقة، ومن اليقيني أن ليس لديه عملا قارا ولقد وجدناه فجأة بيننا كمن ولد كبيرا، أو سقط من السماء، ولعله كان بيننا دائما و لم ننتبه لوجوده وما أذهلنا فقط هو اختفاؤه.

- هذا جنيّ..

قال شيخ أشيب اللحية يجلس وراءهم غير بعيد، ثم أضاف بيقين: سمعت كل ما دار بينكم، بعضكم قد لا يصدقني، أنتم أحرار، لكن قد يكون من تبحثون عنه جني عاش بينكم هذه السنة على هيئة رجل.. ثم ذهب كما جاء. وقال ينصحهم في الأخير: لا تتعبوا أنفسكم.. إنه من العالم الآخر. وتركهم بكامل دهشتهم وانصرف عنهم إلى جريدة رياضية كان يتصفحها.

نادى أحد الزبائن عمي مبارك ليدفع ثمن قهوة احتساها طيلة ساعة قضاها في الاستماع إليهم هو الآخر، بينما كان مطر خفيف ينزل بالخارج قد عطّل خروج عثمان لاقوش الذي بقي يستمع إلى كلام قادة البياع الذي قرر أن يُعلم مسؤوله بأنه لم يتوصل لشيء يخص ذلك السيد، لكنه التزم في المقابل بالمجيء ثانية والتشاور معهما في كل ما يتعلق بالقضية. دفع شاب قصير القامة الباب ودخل يحمل في يده محفظة جلدية كبيرة وقد تبلل شعره الكثيف قليلا، تجهم وجه عمي مبارك لما رآه. إنه عون مصلحة الضرائب، ابتسم لاقوش وقادة البياع متشفيين، ثم انزلقا بخفة إلى الخارج دون أن يدفعا ثمن ما شرباه، كما تناسى الإمام من قبل ساعة انسحابه دفع حق الشاي تاركا المبلغ على الحساب.

الكتب وحدها لا تصنع مثقفا، المثقف الحقيقي يجب أن يكون صاحب موقف كذلك. كم كان مثيرا للشفقة وهو يعتقد بأمور كتلك. إنهم يعتبرون الثقافة أمرا هامشيا جدا، خبِرهم جيدا ويعرف زيفهم، في وقت الجد يختارون الجهلة والانتهازيين. اكتوى عثمان بنارهم غير مرة، ترشح لانتخابات المجلس البلدي على رأس قائمة حزب من اليسار، ولم يحرز حتى مقعدا في مجلس يضم أكثر من ثلاثين مقعدا. كان يحتاج إلى صفعة بتلك القوة ليفهم طبيعة "الشعب الأعمى".. قال متذمرا في أحد الأيام لعمي مبارك، وأمّن الآخر على قوله كأنه يصدقه حقا، يقدّر حجم حسرته، ويستوعب حديثه عن المثقف المخصي. كان ثملا، صريحا، تألم أمامه عن كل الماضي الذي عاشه حالما بالتغيير. هؤلاء يحبون من يسوقهم كالإبل، لا من يقنعهم ويرفعهم لمرتبة الشركاء.. كرر آسفا غير مرة. تخلف عنه حتى أصدقاؤه.. أخطينا من السياسة، ردّوا عليه ببرود لما طلب منهم مشاركته حلمه الذي سوف يكبر. لم يحقد عليهم كثيرا، ربما كانوا مثله، حالمين، قبل أن يؤدبهم الواقع ويتعلموا ألا يتجاوزوا شروطه. يصب غضبه على "الشعب الأعمى"، المنافق والطماع، الذي ينشد حكاما من طينة الملائكة وهو يسلك سلوك الشيطان.. يستحقون أن يركبهم تجار الدين والانتهازيون، أما هو فقد نفض يديه من الأمر كله. كان مجرد حديث مكرر يخفف به عن نفسه وطأة خيبة ثقيلة عاشها منذ سنوات.

هزمته الوقائع هزيمة منكرة، كم من رجل عاش في عصر لا يستحقه؟ يظل حزينا من أجل فشل بذل كل شيء لكيلا يسقط فيه. تزوج بزهيّة وانكفأ، ثم أنجب وصار تأمين معيشة محترمة لأسرته

أعظم تحدياته. بعد الخمسين، تساوى كل شيء عند رجل حالم، ثم فاشل، ثم مهزوم إلى آخر مدى. في زمن العزة والكرامة والفخامة، اتجهت الدولة للإنفاق بإسراف لا حدود له. أشار عليه أحدهم أن يفتح مكتبة، صفقات توريد الأدوات المكتبية والمدرسية للإدارات العمومية والمدارس مربحة جدا، تلك مواد تُهتلك ولا حساب عليها وفواتيرها مضخمة دوما. أغراه العرض، وتحركت في داخله نوازع الجشع، أراد أن ينتقم من بؤسه، ولتذهب المثالية إلى الجحيم. ليس للأنبياء من حفدة ولا ورثة يعيشون بين الناس.. الناس تنهب الخزائن العامرة والدولة راضية وتغريهم بالمزيد. تلح زهيّة في أن تكون مثل قريناتها، وقد عجز عن شراء خاتم واحد لها منذ تزوجا قبل خمسة عشر عاما، ولم يشبعها بغير الكلام. رموا له الفتات، وبقي سوء الطالع يطارده حالما ولصا، ولم تلبث زهيّة أن خلعته مثل جورب نتن ومثقوب، تمردت عليه، ضربها، وبات خارج البيت أكثر من مرة. قتله الشك، وجرحه أنها تركته على الأغلب من أجل آخر أكثر فحولة، وهربت من بؤسه وهو العاجز عن شراء أقراص للفياغرا، ومن حديثه الممل عن الكتب، وعن الزمن الخاطئ الذي ينكل بأمثاله. "حابة نعيش حياتي"، ذلك آخر قول سمعه منها، أمام القاضية المسترجلة، كادت أن تفضحه فآثر الهزيمة بأقل الخسائر. افتدت نفسها بمبلغ لا يعلم من أين حصّلته، وبدا خاضعا كما لم يكن يوما في حياته، وبقي الألم حيّا في قلبه للأبد. ذهب الأولاد للعيش عند جدهم، كانوا يزورونه أحيانا، البنت الكبرى تشبهها، لها ملامحها وفي عينها لؤم يذكره بها. صفعها عندما أخبرته أول مرة بأن أمها تبدو سعيدة مع زوجها، وبأنها تتعلم السياقة.. ودّ لو تخبره كم أنها

حزينة ونادمة لأنها تخلت عنه، ولو يتاح لها ستعود راكعة تحت قدميه. خفت زياراتهم له بعد ذلك حتى انقطعت. آمن أخيرا أن النحس يلاحقه، قسا قلبه، وصدّق بأن الإله الفلسفي الذي يؤمن به لا يلقي له بالا، تفنن في تعذيبه، ثم تركه يواجه مصيره بضعفه وقلة حيلته. انتهى لممارسة تجارة غير شرعية يسد بها حاجته، تخلى عن نظرته المعيارية للأشياء نهائيا، وصار كل همه أن ينجح في أي شيء. أحبّ أن يواصل رعاية الأولاد حتى وهم ينفرون منه. ضرب ابنه يوما بحزام سرواله وترك أثره على جلده، ثم جلس بقربه يبكي، نازعته نفسه لقتل من خلعته. محض رغبة لا يملك مقومات ليجعلها نافذة. رآها قبلها بيوم تسوق سيارة، وبغلها بجوارها، فشبّ حريق في داخله. وفي المساء أتى إلى الحي غاضبا، قصد الشاب الذي اختفى وطالبه بالدّين.. النسيان ليس مجانيا، خاطبه بحدّة. ومع ذلك كان يتعاطف معه، غريب يشبهه، ومخذول مثله من نفسه ومن الحياة المرّة.

يشكو لعمي مبارك مثل ما يسرّ ولد لوالده بما يشقيه، يشفق عليه تارة، ويستمع إليه في ضجر تارة أخرى. يفكر عندما يستمع إليه أنه مقرب منه، ويمكنه أن يستعين به في إنهاء الأمر الذي يؤرقه من سنوات طويلة، ثم يتراجع، يخاف أن تصيبه عدوى النحس من رجل يطحنه الله كل يوم عقابا له. تراوده تجاهه مشاعر أبوة.. يتمادى في خياله، ثم يعود لوعيه. لم يرزقه الله بالذكور، وقد فات الوقت لتدارك أي شيء. جنا عليه تردده، كان عليه أن يتزوج من أخرى فور وفاة زوجته، امرأة قاسية وما كانت تسمح له بتجاوزها إلى أخرى مهما كانت الأسباب.. يجدد فراشه بشابة ولود، والرزق على الله. بماذا ينفعك المال الآن يا سي مبارك؟ أصبح يواجه نفسه

بشجاعة لم تكن له من قبل. سيرث أزواج بناته ما اكتنـــزه طـــوال حياته، دون شكر ولا تقدير، وربما لو أتيح لأحدهم أن يبول علـــى قبره بعد موته لفعل، انتقاما من حياة طويلة عاشها حرمتـــهم مـــن نعيمه. هذا ما لم يحسب حسابه.

يعكر عثمان مزاجه بشكواه المتكررة من الحياة.. تركه ورحل، ثم ها هو يعضه الندم، و لم تعد شيبته تحتمل أن يتعارك مـــع نفســـه طوال الوقت. صلى العشاء خلف الشيخ حسان، وعـــاد إلى البيـــت يسحب قدميه سحبا، يقمع الأسئلة في داخله، ثم تعود فتهجم عليه، ماذا ينفعك ذهب الدنيا كلها لو اجتمع بين يديك؟ أليس جديرا بأن يعطي كل واحدة من بناته الخمس نصيبها، ويرى في أعينهن الفرحة والشكر، ويقيّد أزواجهن ما بقي له من أيام عمره؟ بل الأجـــدر أن تذهب لزيارة البيت الحرام، مكة، وتغسل عظامك، ماذا ســـتقول لله عندما يسألك؟ حلول كفيلة بأن تشبع نفسه رضا لكنها تبقى صعبة، والأصعب منها أنه صار يفكر أن يلعب حظوظه كاملـــة.. أيتـــزوج وهو في تلك السن؟ ربما يأتيه الولد متأخرا، لن يحظى به إلا لسنوات قليلة، لكن خير من أن يموت مطعونا بالحرمان. بالمـــال يســـتطيع أن يشتري كل شيء، سيختار شابة جميلة ولحيمة، أرملـــة أو مطلقـــة وأنجبت من قبل، المحاكم مليئة بأمثالهن، فقيرات يبحثن عـــن الســـتر فقط. سأل عن اليوم المخصص لقضايا الأحوال الشخصية في محكمة رويبة، ذهب مرتين أو ثلاثا وأعجبته الكـــثيرات، أراد أن يصـــطاد واحدة ويدعو الله أن يكرمه. توقف عن تلك المغامرة، لما جلس مـــع عثمان وحذره. امرأة في الأربعين، بيضاء مكتنزة، أهلها فقراء ولهـــا طفل واحد.. وجد ضالته وأوشك أن يبادر، لكن خانته الشجاعة في

نهاية المطاف. قاطعته بناته، أوسطهن، الأقرب إلى قلبه، سخرت منه بمرارة، ونصحته بأن ينتظر الموت دون فضـــائح.. "مـــت مســـتورا يا أبـــي". كان كلامها قاسيا معه، عاد إلى بيته مجروحا، وفي المساء اجتمعت عنده الأخريات ناصحات كما زعمن، فيما التزم أزواجهن حيادا ظاهريا. سمع منهن، ومثل من خانته حكمة آخر العمر، رحـــن يلقنّه إياها من جديد. تتناوبن على خدمته، تنظفن البيت وتطبخن له وليس له حجة في الزواج، هكذا أخبرنه بصوت واحد. تفهمن مـــا يريده، ومع ذلك تمادين في استغفاله وتجاهل حاجته الملحة في أن يرى ذكرا من صلبه، أحفاده هم أولاد أولئك الملتزمين الحياد ويخفـــون في أنفسهم أمنية أن يحفروا قبره اليوم قبل الغد. رحلن وتركنه يفكـــر، وقد بقي في نفسه عزم على إنفاذ ما يريد. ستنجب منك الولـــد ثم تقتلك لتنال كل شيء، قال له عثمان يخوّفه، ثم أردف يقول: وقبـــل ذلك، أأنت واثق من قدراتك؟ لم يرد عليه، وكان ذلك حقا ما جعله يتراجع إلى حين. باغته بسؤال كان يهرب منه، وقد أحب عثمان أن يثبت لنفسه أنه ليس الوحيد الذي عليه أن يواجه حقيقة أنه أصـــبح عاجزا.

استمع إليهم رفيق ناصري واحدا واحدا، وكلّ أجاب بمـــا لا يفيد، قدّروا أن وراء الرجل مصيبة وعليهم أن ينأوا بأنفسهم. الوحيد الذي اعترف أنه تكلم مع الرجل المختفي أكثر من مرة هـــو عمـــي مبارك، زبون لديّ.. ولازم نحكي معاه. وشى بعضهم به، شـــوهد يذهب لشقة الراحل أكثر من مرة، كان عمي مبارك يزوره ويـــتكلم معه في المقهى إذا جاء، وما بينهما لا يمكن أن يكون مجرد كلام عابر بين صاحب مقهى وزبونه. لم يجد بدّا من الإقرار بما لا يجـــرّ قدمـــه

لورطة هو في غنى عنها. جمع ماله دينارا فوق دينار، ستر نفسه من حسد الحاسدين، وحرم نفسه من كل شيء قبل ذلك. جاء من الريف وحيدا وجائعا، حافيا مشقق القدمين، لا يجد ثمن نعل حقير، اشتغل مثل ثور في حقل.. ثم لينتهي حصاد العمر إلى غنيمة ينعم بها الكسالى. أي عدل في هذه الدنيا؟ تمنى من كل قلبه لو أن الله وهبه الولد، ربما كان جبانا ومحبا للمال أكثر مما ينبغي، يدرك الآن ذلك تمام الإدراك. يلوم نفسه، ويحقد على من منعته من الزواج بأخرى.. ستأكلها النار إن شاء الله، يقول إذا تذكرها، لكان إذن له ابن في عمر ذلك الشاب أو أكبر. أراد أن يساعده، وقرر أن يبوح له بسرّ حياته وطلب منه مشاركته لأنه أحبّ أن يعتبره مثل ولد لم يرزق به، ولينشرح صدره لما يراه سعيدا كأنه ابنه الذي من صلبه. حمل عاطفة له، وكان الآخر حمارا ولم يفهمه.. كذلك علّق في آخر مرة رآه فيها. أوهم عثمان والآخرين بأنه ناقم عليه بسبب الدين لئلا يثير شكوكهم. أما في قلبه فقد تمنى حقا أن يورثه كل شيء وهو حي. كان سيقول له إنه ليس عبدا يُشترى.. غبي، حسنا، ها هو اختفى فجأة كما ظهر فجأة، وتبخرت أمنيته هو.

بوصلة القلب

يتسرّب من خصاص النافذة نور باهت. ومن داخل سيارته، في ساحة الحي، بقي يرصد أي حركة محتملة دون أن يبادر بالصعود إلى الشقة.. كأنها لم تكن ليلته الثالثة التي سيبيت فيها حارسا، مترقبا ظهور الرجل الذي اختفى. الكون مليء بالألغاز، الحقيقية والملفقة، لكن ما كان يشغله حقا في الأيام الماضية هو أن يجد "المختفي" أو يعرف مصيره على الأقل. وها هو، بعد ذلك، عندما وصل متأخرا عن وقت مجيئه في الليلتين السابقتين، رأى ذلك النور الخافت ينبعث من غرفة الصالون، و لم يحرك ساكنا.

يعرف الشقة ودخلها قبل ذلك وفتّشها جيدا، تقع في الطابق الأخير، ومع ذلك بقي مترددا في الصعود. الليل أكثر سوادا مما ينبغي له، فتح عينيه على اتساعهما لئلا يخرج أحدهم من العمارة أو يدخل إليها، ويتستر بالظلام، فلا يراه.

لا يعرف لم صار يعتبر البحث عنه مسألة شخصية جدا، ويهمه أكثر من أي شيء آخر. عاش محروما من الأشياء التي يمكن أن يهتم بها. عمله، سيارته، سكنه الأشبه بزنزانة فخمة، أهله في غرب البلاد، الأصدقاء، ممارسة الرياضة.. كل ذلك لا يعطي دائما لحياته نكهة ومعنى. يشعر أن في صميمه فراغا لا يملؤه شيء. لكن تلك ليست بالعلة القاتلة، أغلب الناس يعيشون حياة بلا معنى، مملوءة بكل شيء،

ومع ذلك تفتقد للمعنى. لن يكذب على نفسه فيقول إنه أشفق على الرجل، فهو لا يعرفه، ولم يتقابلا يوما، كما لم يتبادلا كلمات ودية كأي صديقين، ليس متأكدا من أنه سليم معافى أو مصاب بلوثة عقلية أو مرض لا شفاء منه، أو يكون قد ابتلعه البحر بعدما غرق بهم قارب هجرة غير شرعية، وقد دفع لصاحبه مبلغا حصّله من العمل في الحقول أو ورشات البناء. فضول، أو رغبة في التحدي وكشف سره إن كان له من سر.. لم يكن متأكدا بشأنه من شيء، عدا أن يواصل البحث عنه.

طلب عطلة عارضة ورُفض طلبه، ثم أعاد طلبه مشفوعا بتقرير من عند طبيب نفسي من المستشفى المركزي للشرطة، يفيد بوجوب أن يبتعد عن ضغوط العمل لفترة ليبقى صالحا للاستعمال لاحقا. ما أسهل أن يتقبل ضابط غيره فشلا غير مبرمج مثل هذا، الحياة مليئة بالإخفاقات، والإنسان الخارق لم يخلق بعد، ومع ذلك قرر، بعد أن ارتاح ليومين، أن يواصل البحث عنه خارج عمله الرسمي.

بقي ينقّل بصره بين النافذة وباب العمارة، ويفكر في ما يحمله على أن يشغل وقته بكل هذا. يضيق مجال الحركة أمامه، كلما تأخر الوقت صار خيار أن يذهب ويفتح الشقة ليباغته هناك أمرا صعبا. قد تحدث ضوضاء أو مواجهة بينهما ويعتبره لصا. فكّر أن يهاتف قادة البياع ليحضر ويساعده، ثم تراجع، بدأت تمطر. يسكن قريبا من هنا، لكن لديه ألف حيلة ليتحجج بها فلا يأتي إليه، يعرفه جيدا، لزج وكريه مثل ضفدع.

حياة أم مناقصة يتولى إدارتها القدر؟ كم من التنازلات على المرء أن يقدمها حتى يتأقلم.. يتكيف؟ للانهزام والتطويع القسري للذات

مسميات أكثر تهذيبا وأقل وطأة على النفس، لكن المضمون يبقى نفسه. تتصل به هدى فلا يرد، تحبه ويشفق عليها من قدره. مشوار كان يُفترض أن يكتمل، وجهد للإخضاع الذاتي لم يؤت نتيجة حتى الآن. يحبها هو أيضا، هكذا قدّر مشاعره نحوها ساعتها، وستذبحه تضحيتها، هذا ما توقعه و لم يستطع أن يخدع نفسه بمثالية أن الحب يصنع المعجزات. علمته تجربته السابقة أن الحب ليس كل شيء. أم لولد، سيأتيه جاهزا ويتخذه ترياقا لحرمانه، أوشك أن يؤثث بهما خواءه العتيد ثم تراجع، وتوقف مشوارهما بعد شوط واحد من انطلاقه.

حب ناضج ومتصالح مع الظروف ونصف تضحية قد يصنعان سعادة ما.. سعادة إلا ربع. وطّن نفسه منذ مدة على معاكسة القدر. كل شيء أو لا شيء. منطق عدمي لكنه يبقيه هو نفسه. التطويع اللامتناهي مسخ للنفس، وإذن قرر أن يموت وهو هو، وألا يُدفن كأي مسخ والسلام. تعيد هدى الاتصال ويتمادى في التجاهل. تخبره في رسالة نصية بأن أنانيته ستقتله وإنها لا تضحي بشيء من أجله.. وأن ما سيذبحهما حقا هو أوهامه فقط. واصلت تدوس على كرامتها: لا تتخل عني رجاءً.. لنكن معا واترك لي الباقي. يرد في نفسه ألا مزيد من الأوهام. الوعي عذاب، الحب مع العجز عذاب مضاعف. ورجل مثله بعيد عن المكيفات عليه أن يتجرع العذاب إلى آخر مدى. اختبأت قطة تحت سيارته، هاربة من البلل ومن البرد والليل والوحدة. بدأت تموء، تعبر عن وحدتها، عن عذاباتها تحت وقع مطر خفيف كان ينزل منذ ما بعد العصر. عذاباتها لذيذة على الأغلب، دون وعي يكون كل شيء محتملا. النور ينبعث خافتا لا

يزال. يسقط المطر خفيفا وأحيانا منهمرا. أحس بتفاهة ما يفعله. كان متعبا، فارغا، ومتحاملا على نفسه يندفع لملء هوة سحيقة بداخله. يقتفي خط سير رجل مطموس الأثر كليا تقريبا.. ربما كان مثله، يشبهه.. نسخته الأكثر شجاعة في رفض التطويع والامتهان لحياة ليست على مقاس بداياته. آثر الرحيل دون أثر.. قفز في هوته الداخلية و لم يسمح لأحد بأن يجعله محشوا ومثقلا بتفاهة لا حدود لها. ها هو القدر يقدم له نموذجا يحتذي به، وعليه أن يقتفي سيرة اختفائه ويخط طريقا مختلفة، لينتهي مثله إلى النسيان ويرتاح. اختفاء أكرم للنفس من وجود مزيف ومكذوب.. ممسوخ المعالم، ينجو من ينجو منه، ولا عزاء للمترددين من أمثاله.

لم يكن صبره بلا نهاية، توقع أن يأتي اليوم الذي ينفد فيه، وقد حدث. قرر ألا يتمادى في إطعام قلبه مزيدا من الأوهام الفارغة. من الواضح أنه رجل عقيم.. الأطباء يدّعون معرفة كل شيء، بثقة الجاهل حدثه آخر واحد قصده منهم، أخبره أن عليه أن يصبر، لا مشكلة عضوية لديه، وكذلك سمع من منيرة لما رجعا من عنده مثل قوله. الواقع كفيل بإثبات ما هو واقع، أما الأمنيات فتبقى محض أمنيات، أبعد عشر سنوات صبرٌ؟ تكرمت هي بالصبر وقالت له إنها تحب العيش معه بولد أو من غير ولد. تشفق عليه بينما يمعن هو في تعذيب نفسه، يأخذها إلى محلات بيع ألبسة الأطفال والألعاب، يرغب في أن يشتري دراجة أو دمية، أو يوقف سيارته أمام روضة أو مدرسة ويبقى يتأمل الصغار وهم يخرجون أو يدخلون. بكت كثيرا من أجلهما، أصبح محل شفقتها الدائمة، يتكلمان القليل في كل مرة، وتمر أيامهما قاحلة رتيبة، الحب ليس علاجا لكل المشاكل، فهما أن

الزمن يقوي عشرتهما لكن الحب المثمر وحده من يعـــيش طــويلا. أحبته، لا شك له في ذلك، وأحب ألا يستغل حبها له أكثر، ألا تدفع ثمن حظه السيئ قبل فوات الأوان. ليس من حقك أن تقـــرر هـــذا بمفردك، أبدت اعتراضها، لم يرد عليها، قدّر أن تضحيتها من أجلـــه عبثية. كان يحبها ويغار عليها، عقلها كبير ولن تبقى راهبة من بعده، وبحسابات المنطق، وإشباع الأمومة المحتبسة، ستتجاوزه لآخر. الغيرة لم تقتل رجلا من قبل، أما الحرمان فبلى. مطعونا بعمق، تجشم مشقة أن يواجه ثورتها، ثم حزينا ومشفقا، ترك لها الشقة لتجمع أشـــياءها على مهل. في المحكمة لم تطالبه بشيء، شعر أنه تخفف من الشـــعور بأنه مذنب في حقها على نحو ما، وعندما عاد إلى الشـــقة في الليـــل وجدها كالقبر. رجع أعزب، وتعوّد على العيش وحيدا من جديـــد، و لم يندم لحظة واحدة لأنه أنقذها من قدره، وإن متأخرا جدا.

أغلق باب الانتظار، مجبرا، وأغرق نفسه في يومياته. تخفف من وطأة النظر في عينيها عندما يعود في كل مساء، يملؤهما اتهام مـــبطن وأمل في الله بأنه لن يستمر في حرمانهمـــا للأبـــد. ســـجل في دورة تدريب بالمسبح البلدي، اشترى كتبا متنوعة، وانـــدمج في العمـــل أكثر.. واجه فراغا مزدوجا بعد أن طلقها لكنه اعتبر أنه حقق نجاحا ما. كيف سمح للشغف بأي شيء أن يعبث به مرة أخرى؟ تبدأ بعض الحكايات بوقائع بسيطة، انزلق في المسبح فالتوى كاحله مما استوجب عناية طبية، وفي المستشفى كان القدر يفتح له بابا آخـــر لانتظـــار مختلف. هدى ونّاس، طبيبة مختصة في التأهيل الحركي، توفي زوجهـــا قبل عام. ترك لها وسيم وبعض الذكريات القاسية، بعد أقل من شهر على رحيله كان حزنها عليه مجرد قناع تحفظ به صورتها أمام النـــاس.

فكّر أنه سيجد أخيرا طفلا يشتري له دراجة، يستعيره ليأنس به قليلا، نصف حرمان خير من حرمان كامل. كانت طليقته قد اقترحت عليه أن يتبنيا طفلا، لكنه رفض بشدة، واتهمها بأن كلامها عن العيش معه حتى دون ذرية ادعاء فارغ. من أجلك أنت، شرحت له، نستطيع أن نطلب من شقيقتي ابنتها الصغيرة قبل أن تكبر وتتعود عليها، أضافت وهو يسمعها حانقا على كل شيء. أراد التخلص منها بحجة ألا تبقى محرومة من الأولاد بسببه، هذا ما اعترف به لنفسه في ليلته الأولى بعد رحيلها، وربما لاحظ شيئا في عينيها، لم تكن رافضة تماما، ثورتها باردة، وتوقع أن تكون مقاومتها أشد، ومذ ذهبت لم تتصل لتطلب الرجوع وتترجاه أن يعدل عن قراره، أو حتى لتسأله كيف يدبر أموره من دونها. فتح لها باب الخروج من حياته فذهبت دون أن تلتفت، كأنما كانت تنتظر الفرصة وحسب.

تكررت لقاءاته بهدى، تعرّف عليها أكثر، وأصبح شغوفا بها. كان ظهورها سببا إضافيا ليفهم أن ما كان يربطه بمنيرة في السنوات الأخيرة مكابرة أكثر منه حب حقيقي. كانت هدى تلعب الشطرنج بشكل ممتاز، هزمته أول مرة عندما لعبا في المستشفى، ثم صار الانهزام أمامها عادة لا يمل منها.. مهزوما كما كان على الدوام، لكن هذه المرة وهو ملك في قلبها. يجب أن يخوض الرجال معارك الحب مهزومين من البداية، وإلا كان حبهم فاشلا. تعلم من الحياة درسا جديدا. نسي منيرة تقريبا، يمكن أن تُمحى بالكامل عشر سنوات مبهرة، تغدو خافتة، ثم تنطفئ تماما. مثلت هدى وجبة عاطفية كاملة لقلبه الجائع، المتخم بالفراغ وبالأشياء التافهة، وبرؤية الحياة ككتلة مظلمة. تغيرت أولوياته، يخرج من العمل ويمضي رأسا لينتظرها أمام

المستشفى، يوصلها إلى شقة أهلها أو تخرج إليه فيتحدثان قليلا ثم تعود لمناوبتها الليلية. يطلع على صفحتها على الفيسبوك، ويشعر بالحنق على كل يد رسمت إبهام الإعجاب على صورة لها، غير عابئة بحرائق تندلع في قلبه. يلومها، تضحك منه، ويعودان بعمريهما عشرين عاما إلى الوراء خلال محادثة واحدة. تذكّر منيرة وصرامتها، تصرفاتها المحسوبة، حرصها المرضي على النظافة، وابتساماتها المقدّرة على حسب كل موقف. جادة ومنطقية أكثر مما ينبغي. أعجبته تلقائية الطبيبة، لاعبة الشطرنج، مرونتها مع الحياة وكيف أنها ليست أسيرة للماضي من أي نوع كان. وهو مثلها، كان عليه أن يجاريها ويخلع عنه ثوب الشرطي، المحقق، المدقق في كل شيء، ويترك عالمه معها يسير كما تحب أن تسيّره. تجيد فن الحياة أكثر منه، وقد ترك لها زمام كل شيء. لم يألفه ابنها وسيم كما يجب، تقول له إن عمك رفيق يشبه أباك، فيرفض الصغير تلك المقارنة، ويتذمر هو من تشبيبها له بزوجها الراحل، يريد أن تراه متميزا ومتفردا، مثل ما يراها هو امرأة قد لا يلتقي بها الرجل في حياته أكثر من مرة واحدة. الحب نظارة ملونة.

عقدا قرانهما في هدوء، وراح ينتظر أن تنهي بعض الأمور لتنتقل للعيش معه. أخيرا أصبح ينتظر شيئا غير الأولاد. لا أحد يحظى بكل شيء، هكذا أقنع نفسه، جدد شقته في حدود ما استطاع، نزع عنها صرامة منيرة ولمستها المدرسية. أضحت جاهزة لاستقبال امرأة مثل هدى، تعيش الحياة بأقل الحسابات الممكنة. تفقدا الشقة، حفظ عن ظهر قلب ما طلبت تعديله، واندمجا كأي زوجين. حدثته عن الألوان، الستائر، المطبخ والصالون، وأخيرا عن غرفة النوم. حدثها

هو عن حبه، أمعن النظر في عينيها، ذاب فيها، وبلغا ذروة لم يخططا لها من قبل. سبقت أوانها بقليل، لكنها أيضا كانت متأخرة بالنسبة لنظرات ملغمة كالتي تبادلاها من أول يوم تعرفا فيه على بعضهما. نشوة غامرة. كلمها في الليل عن سعادته بها، وكيف كانت أمنية حياته ساعة كانا معا أن تثمر ذروتهما عن طفل. جرحها قوله، وردت بقسوة لم تقدّر حجمها في حينها: لست آلة تفريخ. انكمش الحب، تضاءل، ساد صمت لثوان قبل أن تتركه. كان يأمل أن ترغب في إسعاده، الحب ليس كل شيء. لم تفهم ذلك في حينها، اعتذرت له في الصباح، بينما كشف صمته وهي تتجاوز ذلك للكلام عن أمور أخرى عن حزنه وإحباطه. قرر يومها، ربما، ألا يتطرف في الحلم، أن يعود لسنّه، وأن يسلم عالمه للقدر وحده يسيّره.. يتصالح مع حرمانه، ويبقي كرامته محفوظة. قد لا تصلح لاعبة الشطرنج كثيرا للحب، تحتاج إلى أن تخسر أمامه أحيانا وتطاوعه حتى لو كان ضالا، حالما، مخطئا، يتبع كلام الأطباء ويعاند إرادة الله الواضحة.. ليكون ملكا على رقعة حياتها، يمسح الجميع، لتخضع له في النهاية وحده.

انتصف الليل، لم ينتبه متى توقف المطر، هدأت القطط واستسلمت للسكون. تابع خيالا في شرفة تقابل تماما شقة مراد، يظهر ويختفي، رجح أن يكون صاحبه ضحية للأرق. أخذته غفوة، سِنة خفيفة أرخت أجفانه، فتح عينيه بعدها ليرى شبحين يخرجان من العمارة. اختفيا خلال ثوان قليلة، ربما كان مجرد منام، أو رغبة في ألا تنتهي مراقبته طيلة ثلاث ليال إلى حصاد هزيل. لم يكن يحلم، عاند شكوكه.. كان سيتبعهما لولا أنه رآهما عندما كان في الحد

الفاصل بين اليقظة والنوم، والمطر والظلام لم يساعداه، مصابيح الإنارة خافتة وبعضها محترق. نزل من السيارة وتقدم خطوات ثم توقف، وجد نفسه وحيدا وسط ساحة تصطف على جوانبها السيارات. لا شيء إلا هو، رفع بصره إلى النافذة فرأى النور قد أُطفئ. بقي عاجزا ومستصغرا نفسه أمام الحالة الغبية التي وضعته فيها. كان عليك اقتحام الشقة، قال محتدا يؤنب نفسه، ثم تدارك بالسؤال: هل من كان بالداخل هو من يبحث عنه؟ لكنه رأى شبحين اثنين يخرجان من العمارة ثم يختفيان لا واحدا فقط.. هل رأى أي شيء حقا؟ التفت فرأى الخيال في الشرفة يفتح دفتيها إلى آخرهما، تأكد أنها امرأة. ثمة شيء لم يفهمه. كانت الساعة في يده قد تجاوزت منتصف الليل بعشرين دقيقة. عبث دون طائل. قرأ رسائل هدى على هاتفه مرة أخرى، غادر بسيارته وقد بيّت النية على ألا يعود إلى هناك من جديد. لم يفتر حماسه ومع ذلك راجع نفسه، البحث عن ذلك الرجل يجب أن يتم في مكان آخر. جاب بالسيارة، دون غاية، شوارع الرويبة شبه الخاوية لساعة كاملة، استعاد خلالها كل ما سمعه حوله وما توصل لمعرفته عنه. حاول أن يتخيل شكله، وأحبّ أن يلتقي به دون خلفيات مسبقة، يتحدثان، ويفهم منه كيف لإنسان أن يمحو معالم وجوده كلها تقريبا.. هل كان موجودا حقا؟ وُلد كما يولد الناس، له أبوان وأهل، دخل المدرسة وعاقبه المعلم لأنه لم ينجز الواجب، شبّ وعاكس الفتيات في الشارع، اشتهى النساء واستمنى في مراهقته، ثم كبر وخذلته امرأة لا تستحقه، وخذله جيبه في أن يتمتع بحياته مثل رفاقه، ذهب إلى الحلاق، وتشاكس مع الأصدقاء على شاطئ البحر، تابع مباريات كرة القدم، كما تهور

أحيانا وارتكب حماقات بلا عدد، تخرّج من الجامعة وعاش محبطــا، ملأته النقمة على الحكومة اللعينة فركب قوارب الموت.. كل هذا أو لا شيء منه، قام هو بكل ذلك تقريبا، فلِم يشعر أن وجوده يكــاد يستوي مع غيابه؟

الفساد في هذا البلد يمشي على قدمين، يعيش بين الناس، وقــد تآلفوا معه. إنه فلسفة دولة بأكملها، دولة صــارت أشــبه بضــيعة مستباحة. كذا سمع من صديقه آخر مرة تكلما معا، كان محبطا وقرر الهجرة لكندا، ودّعه داعيا إياه أن يلحق به قريبا. في طرف المدينــة حيث مرّ بسيارته، أثناء جولته الليلية، رأى قطعة الأرض التي فتحت أمامه أبواب الجحيم. تشهد سيارته ذاها وما لحق بها كم أن تهديداتهم كانت جدية أكثر مما توقع. اقتطع أحد النافذين الكبار جــزءا مــن أرض، مُنحت لفلاح عن طريق عقود الامتياز الفلاحي، ليبني عليهــا فندقا وملهى. خوفا أو تواطؤا، لم يبد الفــلاح صــاحب الامتيــاز اعتراضا. بدئ بتهيئتها ووضعت الأسس مع أن تراخيص البنــاء في العاصمة أوقفت تماما، وخلال دورية عادية لشرطة العمــران حــرر محضر ليرفع إلى العدالة. في ضحى يوم جمعة مشمس تــرك ســيارته ودخل لحمام ساونا، ارتخى كليا ليأتي بعدها من يخبره وسط البخــار بأن سيارته قد هُشمت، وفي الغد كان المحافظ يستدعيه لــيفهم مــا حصل. تطرقت جريدة واسعة الانتشار للقضية.. مــن أيــن لهــم بالتفاصيل؟ كان على الالتزام بالقانون ألا يكبل يد الخير، لذا اتصــل بصديق قديم من أيام الدراسة يعمل صحفيا، ســفيان ثــابتي، مــن الأصوات الحرة المعاكسة لتيار الإفساد العام، أعلمه بما حدث ونُشــر الخبر. أُرسلت لجنة تحقيق من الولاية وأُوقف بناء الفندق في بدايتــه،

كما سُحب عقد الامتياز من الفلاح المستفيد.. خطوات جيدة لو لم تكن ضربا متبادلا بين المتكالبين على النهب. "إطار سام" كان قد حُرم من الكعكة فسعى للانتقام من خصومه وجاءت الواقعة على هواه وتمكن من النيل منهم. شك فيه المحافظ وإن لم يملك إثباتا على اتهامه بتسريب شيء للصحافة.. تتقاتل العُصب وتوجه لبعضها البعض الضربات، ولن تعوزها مصادر المعلومات التي تستخدمها كأسلحة ضد الخصوم. كسب جولة، هذا ما اعتقده، نصحته منيرة بألا يقف في فم الوحش، الشجاعة وحدها لا تكفي، يعرف أنها محقة، لكن نصيحتها جاءت متأخرة. مرت أيام، وطلب شخص مقابلته، نزل إليه من المكتب، كانا اثنين.. رافقهما إلى مقهى قريب. موضوع خاص لو تكرمت، خاطبه أحدهما بلباقة زائدة، ابتعدوا قليلا عن مركز الأمن، وقبل الوصول إلى المقهى، تغيرت اللهجة. ستدفع الثمن، خاطبه الذي تخلى عن لباقته بعينين جاحظتين، وقطع الآخر صمته مهددا إياه "لقد حفرت قبرك بيدك". ركبا في سيارة فاخرة كانت بانتظارهما، وتركاه واقفا على الرصيف. أدرك بعدها أن تهشيم سيارته كان مجرد عربون، ففي الغد فُقدت سيارة منيرة من أمام العمارة. ذكّرته بأنها حذرته من قبل.. تنقلت إلى عملها في الثانوية حيث تدرّس مشيا لمدة أسبوع قبل أن يشتري لها والدها سيارة أخرى. يومها اتصل بسفيان ثابتي، بدا من صوته نادما على تحديه لهم، إنهم مافيا حقيقية، قال له، لكل شيء ثمن، رد عليه الآخر ثم نصحه بأن يطلب نقله من رويبة إلى أي مكان آخر في العاصمة حتى يُنسى الأمر.

انقضت مدة على الواقعة، فتحت مديرية الأمن تحقيقا لم يُفهم

ما الغرض منه تحديدا، لكن كان واضحا أن جهة عليا تقف وراء المتضرر وتحميه. كانت مجرد تكهنات تحولت إلى حقيقة، إذ استأنِف بناء الفندق، وعلا هيكله الإسمنتي كأن شيئا لم يحدث، بينما طلب رفيق ناصري الاستفادة من عطله السنوية، وحصل على الموافقة فورا. ابتعد عن العمل، انفصل عن منيرة، ثم تفرّغ لهدى، قبل أن يستعين به المحافظ استثنائيا بعد العثور على جثة الشيخ في شقته بحي المحطة. لم يعد يأبه لشيء. الطفل المشاكس، ثم الشاب الطموح والعنيد، اللذين كان عليهما اختفيا، وأفسحا المجال للامبالاة أن تطغى عليه. الأسد لا يُحلب، لكنه قد يُدجّن ويلعب في السيرك لإضحاك السذج والجبناء.. سيموت قبل أن يحدث ذلك. وفي الانتظار، لا شيء غير الانتظار، ومع ذلك كان محظوظا بحق، لو كان له ولد لأحرقوا قلبه عليه.

ساعة واحدة بقيت عن الفجر، دخل لينام محبطا، تمنى أن يجد نفسه مفقودا في مكان لا يعرفه فيه أحد، وقد نسي حرمانه وخذلانه. منذ كان صغيرا يتهمونه بحب البطولة والظهور، لحظات قبل النوم، كانت أكبر أمنياته أن يختفي أو يصبح شفافا، يضمحل فلا يترك خلفه أي أثر.. كما فعل ذلك الذي نجح في أن يصير لا أحدا بعينه، وحقق البطولة الكاملة.

مجرد أقدار

الهمّ سم قاتل، والحياة وصفة حقيقية للعذاب، وأيامه لم تكن أبدا بهذا السوء من قبل. وعليه هو، عثمان لاقوش، أن يخضع لحساباتها العبثية. ما كان للعالم أن يقف على رجل واحدة، اليسار وحده لا يكفي، تقبّل ذلك، تبرّز قناعاته القديمة ورضي أن يعيش مثل ذئب.. لكنه الآن ضحية مسمومة، عاجزة ومثيرة للاستياء. تبا لكل من لا يستطيع مهما كانت أسباب عجزه. يقف ثملا، يراقبها، لا يعلم لِم يتبعها ويعمّق برؤيتها جراحه. تظل المكتبة مغلقة بينما يتفرغ لرصد حركتها. يرى زهية تخرج من فيلا زوجها تسوق سيارة لا يملك هو حتى عُشر ثمنها، وبعلها الشيخ السفيه ينفق عليها بسخاء، ويبدو سعيدا بها كأنه حظي بسيدة النساء. أين رآها ومتى عرفته وقد كانت لا تخرج من البيت؟ هل سحرته؟ يخاف أن تلاحظ وجوده بالقرب منها، هددته بالشرطة عندما اقترب منها مرة. تخلّت عن زوجها وأولادها من أجل متعتها.. فاسقة، بقرة، كل شتائم الدنيا لا تشفي غليله، يعود إلى البيت ليشرب، أو إلى مقهى عمي مبارك ليطرح عشرات الأسئلة دون أن يكلف نفسه عناء البحث عن جواب لأي منها. هل يُشبع ذلك الهرِم جوعها كما لم يكن يفعل هو؟ أكبر منه وعجزه أبلغ، ربما عثر على خلطة سحرية أو حبوب رهيبة المفعول، لا.. المال وحده يحقق المعجزات. احتقرته بنظراتها،

ألح في إزعاجها، وسمعها تقول له سأكلمك يوما، تريـــد أن تصـــرفه عنها. لم يستجب فهددته بأن تقدم شكوى ضده.

أخبرته على عجل بأنها لم تكرهه يوما، وإنما أرادت إنقاذ نفســـها وأبنائها، كانت لعنته ستصيب الجميع لذا كـــان عليهـــا أن تتصـــرف. استعان بقادة البياع واستقصى عنها. فتح لها زوجها الجديـــد ورشـــة خياطة كبيرة، ووضع تحت يدها عشرين امـــرأة ورصـــيدا في البنـــك، وأصبحت مهمة على نحو ما. اقترحت زهيّة عليه مرة أن تطلب قرضـــا مصغرا من الأموال المخصصة لمساعدة النســـاء الماكثـــات في البيـــوت لتشتري آلة خياطة فتماطل وأطفأ حماسها للفكرة. لكنها وجدت أخيرا من يقدّر موهبتها في الخياطة ويساعدها على تحقيق حلمها. لن أرضـــى بأي رشوة، لست كلبا للنقود مثلها، قال يردع نفسه لما أغـــراه قـــادة البياع بابتزازها. شُفيتْ من الفقر وانطلقت كالصاروخ فيما يرتع هو في الوحل مثل كلب أجرب. أخبره ابنه وليد بأن زوجها ينفذ كل ما تطلبه منه، وقد خاصم كل أبنائه من أجلها. يشتعل غضبا وهو يسرد عليه في كل مرة جانبا من حكايتها الجديدة. يهم بأن يضربه عندما يـــرى أثـــر نعمة غريمه على ابنه، لكنه يتراجع في آخر لحظة ويخرس حتى عن التفوه بكلمة استنكار واحدة. الأبوة ليست بالكلام. الأولاد يحبونها وحـــدها، ويتجنبون زيارته، لا حاجة لهم بأب مثله عديم الجدوى، فاشل وسكّير. استولى ذلك الدخيل على كل شيء، وخسر هو أسرته لأنه صـــاحب مبدأ وحظه سيئ. كلّم زميل دراسة قديم، عاشور قابض البريد، فلم يرد عليه. صار يتجاهله ويتجنب لقاءه. طلب منه أن يقرضه أي مبلغ فرفض بحجة واهية. ليس صديقا حقيقيا، وإلا لكان ساعده في العثـــور علـــى وظيفة على الأقل، معارفه كثر لكنه غير صادق في التعاطف معه. طالمـــا

ساعده في الامتحانات، كان حمارا لا يفهم شيئا، يدفع ثمـــن الســـجائر والسندوتش ويتولى هو نسخ الدروس وشرحها له وإنجـــاز الواجبـــات المنزلية، وتلقينه الإجابة أثناء الاختبارات إذا كان الأستاذ الحارس غافلا. رقص في عرسه، وفرح له كثيرا، ومع ذلك أهانه بكلمة أمام الحاضرين. جعلهم يضحكون منه، غافل ومثالي قال عنه، فانسحب ثم رضي بمجرد أن استرضاه باعتذار تافه. تاريخه في التذلل قديم، وإن حاول لاحقـــا أن يتدارك قليلا. استعاد شيئا من التكافؤ في العلاقة معه، ومع ذلك لا شيء يدوم، والمودة أضعف من أن تقاوم الزمن والأقدار المتباينة. تركه معلقـــا ليومين، ثم تكرّم عليه بورقة ألف دينار فلم يجد من قبولها بُـــدّا. أصـــبح دائم الصمت، ما عاد لكل ما كان يردده من أهمية، المثقف مجرد دجاجة منتوفة الريش وغارقة في ذراقها. الجيوب الممتلئة وحدها تفرض منطقها. انقطع عنه المدد من مصنع البيرة، وبائع النسيان من دون علم الحكومـــة صار مفلسا وبالكاد يتدبر قوت يومه. عاد فوضع مصاحف القـــرآن في مكتبته، كتبا للفتوى ومعها نسخا من موطأ مالك، ليسترزق منـــها. لا تضمن له مكتبته حتى حد الكفاف، ويذهب أغلب مـــا تـــدره إيجـــارا للمحل. لا أحد يقرأ والجهل ينتشر كالوباء. إنه مدين لصاحب المحـــل بأجرة ثلاثة أشهر وهو يهدده بالطرد، وقد منحه مهلة أســـبوع واحـــد كآخر فرصة. كانت تجارته الأخرى تستره، أما الآن فأصبح مكشـــوفا تماما، وزادت طليقته عليه فأنهكته، وفكّر أن عليها أن تدفع الـــثمن.. أي ثمن.

جلس مع عمي مبارك، الإنسان الأقرب إليه في الأيام الأخيرة، تحدث إليه طويلا، بصوت خافت أن يسمعه الفتى الـــذي أحضـــره ليشتغل عنده. بتثاؤب وضع الفتى أمامهما كأسي حليب وقطع خبز

مع المربى، وانصرف لا مباليا. لم يتبرم عمي مبارك هذه المـــرة مـــن سماع الحكاية المكررة، وجد في نكبة صاحبه عزاءً لما يمرّ به، وإن ليس ما كان يواجهه على تلك الدرجة من المأساوية. ليلة أمـــس كانـــت فارقة، خاض الامتحان العسير وخرج مظفرا، كان المطر قد توقف، وبعد منتصف الليل كان يخرج من شقة ابن المغفور له وينزل درجات سلم العمارة مغتبطا. ليس منكوبا تماما، زالت مخاوفه والأمل قائم فيه لا يزال. كان سيفخر باجتيازه الناجح لامتحان ما بقي من الفحولـــة لو علم أن عثمان سأله عن قدراته ليحرجه فقط، وليثبت لنفسه أنـــه ليس العنين الوحيد. لم يعد قلبه شابا، والمداومة على تلك الأقـــراص ستتعبه. يحتاج إلى سنتين على الأكثر ليرى الطفل أمامه، ثم يمكنه أن يودّع الدنيا مرتاحا. أتعبته الشابة، لن يعرف أنها تحتفظ بـــالقميص الأزرق كعلامة خصوصية، إذ لا ينوي تكرار التجربة. قرر أن يشرع في المفيد. أصبح وجهه متعبا، لكن راضيا عن نفسه على نحـــو مـــا، وساخطا عليها من جهة أن سمح للمرحومة أن تسرق صحته. تـــردد كثيرا حتى بعد وفاتها وخانته شجاعته وكرمه غير مرة. ستأكلها النار لا محالة، ذلك أمر مؤجل، ويوم القيامة سيعرف بم يجيـــب بـــه الله عندما سيحاسبه على الزنا وهو في أرذل العمر. لم يكـــن فاســـقا في حياته لكن الظروف فرضت عليه ذلك. وماذا الآن؟ ردد السؤال بينه وبين نفسه، وقد تركه عثمان لصمته. فلتذهب البنات إلى الجحـــيم، لئيمات ورثن عن والدهن الحسد والطمع، وسيموت مستورا نكايـــة فيهن جميعا. المرأة التي ستنجب له الطفل وحدها من ستستحق كـــلّ ما جمعه طيلة حياته. ذهب وسأل الشيخ حسان عن ذلك. اغتســـل من الجنابة وصلى الفجر، ثم جلس معه في المقصورة، واجـــه ســـؤاله

بابتسامة قبل أن يشد على يده ويشجعه، "اِنو وتوكل على ربـــي"، خاطبه. في مرحلة إنقاذ ما يمكن إنقاذه لا يجب على المرء أن يلتفـــت إلى التضحيات ولا أن يجري الحسابات الضيقة.. لم يندم على المبلـــغ الذي دفعه لقادة البياع وصديقه المدعو جلال الأعمش نظير أن يهيئ له المرأة والمكان، وبالنظر لنصف النجاح الذي حققه، لن يعتبر مـــا دفعه خسارة جسيمة. فتح له باب شقة مراد وجلب له المرأة ليمتحن قدراته. لم يفعل ذلك منذ سنوات، عمر مهدور لكن الوقت لـــيس للرثاء، ولا لاستعادة لياقة أودى بها الخمول والسنّ. ســـيعيد تهيئـــة البيت، وسيأمر البنات بأن يساعدنه وسيمتثلن، يحـــركهن الخـــوف والطمع ولن يتمردن عليه. رأى تلك الأربعينية المســـكينة فـــدخلت قلبه، خرجت مع والدها من قاعة الجلسات بالمحكمة فتبعهما وأخـــذ من عند أبيها رقم هاتفه. ضرب له بعد ذلك موعـــدا، وزارهمـــا في البيت، لها طفلة وحيدة في الخامسة ويمكن أن تبقى مع جدتها. فهـــم أن الفقر يتعلق بأهداب الرجل وأن موافقته على تزويجها له تحصـــيل حاصل. عقد العزم على ألا يموت أبتر كما عاش حياته بـــلا ســـند، وسيكون ما يتركه حلالا للمرأة التي ستحقق له أمنية عمـــره، ولـــن يبخل بأي شيء عن طفل انتظره طويلا. قام عثمان من أمامـــه ولم يشعر به، رمى كل تحذيراته له وراء ظهره، ابنة حلال ولن تؤذيه أو تدنّس فراشه. كل ما عليه هو أن يدعو الله ليطول عمـــره قلـــيلا، ويسعفه قلبه، ليأتي الطفل وتقرّ به عينه، ثم يموت غير آســـف علـــى شيء، وراضيا كمن نال في الدنيا كل ما تمناه.

أدى مهمة أخرى بنجاح، ارتاح ليوم كامل، ثم ذهب في الغـــد للمقهى فوجده مغلقا، وهاتف عمي مبارك لا يرد. لا يطمع أن يبقيه

زبونا دائما عنده، قلبه ضعيف، وقد تقتله إحداهن ويتـــورط فيـــه. جائزته الكبرى في مكان آخر. انتظره أمام بيته لساعة دون جدوى، وتجاوز شكه إلى اليقين، يغيب كل أسبوع ليوم أو يومين ثم يظهر من جديد، وقد تكون هذه المرة حاسمة. تمنى ألا تكون حساباته خاطئة، أعظم ما يمكن أن يحدث له إن حالفه التوفيق، وسيُشفى حينها مـــن بؤسه إلى الممات. لا تعوزه الحيلة بقدر ما يعاكســـه الحـــظ. ســـهر بالأمس مع جلال الأعمش في المقبرة لوحدهما، بعيدا عـــن حثالـــة الدومينو، دخّنا سيجارتين ملغمتين وانطلقا في الكلام. انتهى جـــلال الأعمش إلى أن يثبت حقيقة ساطعة في نظره بما بقي له من وعـــي، جحظ عينيه وحاول أن يبدو كأنه سيخبره بسرّ عميق: أنت وضـــيع يا قادة، لو كان الله يحبني حقا لرزقني بصديق أفضل. ردّ الآخر بـــدم بارد: كلنا أوباش يا حبيبـــي، أنا فاسد بالفطرة، أما أنت فانتـــهازي وحقير أكثر من أي أحد في هذه الدنيا، تبيع عظام الموتى وتعيل أمك وإخوتك من رفاقهم. هز جلال الأعمش رأسه مؤمّنا على قولـــه، ثم مستدركا: هم سرقوا حياتنا وأرواحنا ونحن أحياء، أظن أن انتقـــامي منهم عادل جدا. شارفت سيجارتاهما على الانتهاء و لم يلبثا أن التزما الصمت، وقد ذهب كل كلامهما -مثل الدخان- هباء. مرآتـــان، صورتان عاريتان، متصالحان مع حقيقتهما دوما. لم ينزعج الراقدون بالجوار من ثرثرتهم وكلماتهم البذيئة، الموتى يتمتعون بأعصاب باردة وهم أطول بالا من أي أحد. العجوز القوادة، ربـــة الحرفـــة كمـــا يسميها قادة البياع، ذات قميص النـــوم الأزرق، وكـــر الفجـــور الجديد.. يتسامران، يستأنسان بمصباح ضعيف مثل خنـــافس ليـــل تتجمع تحت نور خافت. يزوره كلما جد جديد، ومع الفجر خرج

من عنده بعد أن طلب منه تحضير نفسه. هذه المرة قد نحتاج "لقبر جديد" أو نفتح قبرا منسيا لا يزوره أحد، قام جلال الأعمش لما سمع ذلك وكان متمددا على جنبه: ماذا؟ هل تنوي أن تخفي جثة أحدهم؟ لم يجبه، سكت قليلا ثم أردف يقول: ألم تطلب مني ذلك من قبل ووعدتني بمال كثير ثم لم يحدث شيء؟! انصرف من عنده وهو يطمئنه: لا تخف، هذه المرة سيحالفني الحظ، ثم بثقة عالية: ستنال نصيبك، ستكون صفقة العمر يا لص القبور.

عاد واستلقى على سريره، بشقة من غرفة واحدة ومطبخ وحمام، منحتها له البلدية بتوصية من جهة أمنية نظير خدماته. قوادة مثمرة. ملّ من كل ذلك، بقيت عيناه مفتحتين إلى آخر مدى، يحدق في السقف متعبا قليلا من سهرة أمس، ويتطلع لفرصته القادمة. قبض مبلغا معقولا من عند عمي مبارك، امتهن كرامته كثيرا، ووجب عليه أن يضع حدا لذلك الامتهان. الناس أنذال، ومن ينتصر فيهم هو الأكثر نذالة من بينهم. من كان يتوقع أن يصير إلى ما صار إليه؟ بملعب خمسة جويلية، هتف مع الجموع وكان من ضمن الحناجر الهادرة بأعلى صوتها، تنادي "إسلامية.. إسلامية" و"عليها نحيا وعليها نموت وعليها نلقى الله". عام 1991، شاب قادم للحياة، كم كان لله نصيب من قلبه. اعتُقل مع من اعتقلوا، وانتصر الطواغيت في حربهم على الصحوة المباركة، وتركهم الله مخذولين ولقمة سائغة للعسكر. كان المنافقون كثر، وكان من حق الله ألا ينصر كل من هب ودب لمجرد أنه يعلي صوته أمام الناس باسم الإسلام. تحوّل الزمن ونسيهم الناس. داخل سجن البرواقية رأى الجحيم بأم عينه، عُذّب وأهين وتمنى الموت، ومع ذلك بقي مؤمنا بالجبهة، بعض قادتها سُجن

وآخرون هربوا وأصبحوا مطاردين، وآخرون بان زيفهم ووقفوا مع نظام الطواغيت.. برغم ذلك كله ابتلي وصبر. في ليلة باردة انضموا إلى بعضهم، يبحثون عن الدفء، القاعة باردة ورائحتها عفنة، كانوا معزولين قبل أن يضموا إليهم بعض مجرمي الحق العام الأكثر خطرا. قضوا معهم أياما صعبة وقاسية، سمع أنهم يحاولون في قاعات أخرى أن يصدّروا شذوذهم للآخرين، يتحسسون مؤخرات بعضهم البعض ويتهامسون، أحدهم لا يبالي ثم ينهار باكيا، وآخر يتبول في سرواله. ماتت قلوبهم أو يخافون من شيء لا يعلمه، يتبادلون كلاما تافها، يراجعون قناعاتهم ويتذكرون أولادهم ثم يبكون بمرارة. حرب نفسية من إدارة السجن أم حقيقة؟ لا إجابة قاطعة توصل إليها. انهارت مقاومته، ما كان لينتظر أن يغتصبه أحدهم مهما كلفه الأمر. مهانة لا حدود لها، بقي مصدوما مما سمع. أليس من أجل هؤلاء الناس كان يرفع راية الله لينقذهم من طاعون الكفر والاستبداد؟ "الجبهة الإسلامية للإنقاذ"، لكن إنقاذ من وبأي تكلفة؟ حدثه الضابط، واستمع إليه مطأطأ الرأس مهانا، وقد كان لا ينحني إلا لمولاه، انكسر شيء بداخله و لم يتمكن أن يرفع رأسه بعدها. ضعيف البنية و لم يتحمل أن يبقى طويلا ليتعرض لأي امتهان. أبدى استعداده لكل شيء ومن يومها سقطت الـ لا من قاموسه نهائيا.

خرج واتسعت دائرة تنازلاته لتصبح بلا حدود. ممن قضى سنوات طويلة بعدها يريد أن ينتقم؟ رجل ممقوت، مستعد لارتكاب كل المنكرات مقابل المال، ويدعونه في غيابه بالقواد. الأخ قادة بن صافية صار يدعى قادة القواد. يتجاهل ذلك، يعلم أنه مكروه مثل خنزير بلا نخوة، ولا سبيل لديه ليغيّر من صورته. حاول أكثر من مرة

أن يبدأ من جديد، في مدينة أخرى مع بشر آخرين، تنتفض بقايا كرامته ثم تعود للموات. انحدر إلى قاع يصعب الخروج منه، والناس ليسوا أبرياء تماما ولا أشرف منه. متلونون وبألف قناع وانتهازيون مثله وربما أكثر، ما يميزه عنهم أنه كشف عن وجهه الحقيقي، وخرج فيها "طاي طاي" يرجح مصلحته ولا يتذرع بالأخلاق، لا يربي لحية ويتقدم الصفوف في المسجد أو يكذب على الله ويخفي في نفسه ما لا يبديه. كذب على البائسين واستغل ظروفهم، أوصل نساء فاسدات لمن طلب وقبض من الطرفين حق ذلك. لص وآفاق، كذّاب ونمّام، خلطة من السوء تمشي على قدمين، لكن لا أحد اتهمه يوما بالنفاق. محنة واحدة كانت كفيلة بأن ترده مسخا، لو كان مؤمنا بحق لصبر ولما وصل إلى ما وصل إليه. يسمعهم يتهامسون بشأنه في الحي إذا مرّ من أمامهم، يتغامزون ويضحكون، كلب شرطة، حَرْكِيْ (واشٍ)، ينقل أخبار جيرانه وسكان الحي، دون مقابل غالبا أو نظير أشياء تافهة. لو كان ممكنا أن يمزق سجل حياته ويبدأ واحدا آخر من جديد. تقلّب على جنبه وبحث عن النوم، ضوء آخر النهار والضوضاء لم يسمحا له بأن يغفو قليلا. أخذ يفكر في غزوة جديدة، فرصة حياته إن أحسن استغلالها. بدأ الظلام يعم، وقرر النوم باكرا هذه الليلة، أكل حبتي بيض مسلوقتين وصدر دجاج بقي له من وجبة أمس. عاد لسريره وألقى ببدنه دون أن يغير ثيابه، دقائق قليلة وكلمه رفيق ناصري في الهاتف يطلبه.

قام بمحاولة فاشلة أخرى وأراد أن يتلقي به، لم يرد عليه و لم يدفعه الفضول لمعرفة فيم يطلبه. لم يعرف رفيق أن ذلك اللقاء لن يتم أبدا، وإن كان متأكدا من البداية أنه لن يتمخض عن أي شيء مهم.

عاد خائبا من سرج الغول، سافر دون أن يخبر أحدا، عدا زميلا من دفعته يعمل هناك، وعده بملاقاته عند وصوله ومساعدته. تائه يبحث عن مفقود. عثر على معلوماته الصحيحة لأول مرة لكنها جاءت بعد فوات الأوان بوقت طويل جدا. الصحيح أنه كان في مراهقته لا يتميز عن أقرانه بشيء، خجول وعلى درجة من التحفّظ لا تناسب سنّه إذ ذاك، يتيم الأم، ثم الأب، تكفل به عمه وزوجته. اختُطف في حادث "عرضي" انتقاما لمقتل جندي بالقرب من سرج الغول، نجا بأعجوبة، وما زال البعض يتحدثون عما وقع له. سمع رفيق من الكثيرين، و لم يذكر أحد أنه رآه بعدها، هل نجا حقا؟ سأل رفيق نفسه بعدما سمع اثنين يقولان إنه مات وأن إشاعة نجاته أُطلقت من طرف رجل معروف بدمويته حينها ليدعي بطولة ليست له. عمي صالح، كما يدعونه، والذي أنقذه كما ذُكر، أصبح رئيس بلدية فيما بعد، وافاه الأجل، لكن ابنه أخبرهما بأنه سمع من المرحوم والده بعد إحدى زياراته للعاصمة أنه التقى بالصدفة في محل بيتزيريا بشاب أنقذه من الموت المحقق في سنوات النار. أما شقيقه عمّار فقد رحل عن سرج الغول قبل أعوام، حصل رفيق على رقمه، وبصعوبة تجاوب معه، قال إنه لم ير شقيقه منذ توفيت خالتهما في العاصمة.

تعطّلت سيارته في الطريق، ضاع منه اليوم، وعندما وصل نزل في فندق فرانز فانون بوسط سطيف. تمشى قليلا، دخل "المول"، وفي الصباح الباكر ذهب لسرج الغول ليسأل عنه. في طريق عودته إلى العاصمة، لم يستطع عقله تجميع شيء. بيتهم، وكان عقارا دون وثائق، اشتراه أستاذ كان وافدا جديدا على المنطقة، وقد تقاعد الآن ولا علم له بشيء عمن كانوا يسكنون فيه. أما بعض من سألهم من

الجيران فأخبروه أن إبراهيم لم ينجب إلا عمارا، أما الآخر فلم يـــره أحد، وربما لا وجود له من الأساس. يحب الناس أن يكذبوا ليخفـــوا جهلهم بما يُسألون عنه. مقابلا للمدينة الصغيرة، يدعو جبل الســـرج من يتأمله أن يمتطي صهوة المستحيل بين حـــين وآخـــر، أو يختفـــي لدرجة ألا يكون أحدا بين الناس. جلس رفيق مع زميـــل دفعتـــه في مقهى، يتأهب للرحيل، ومملوءا باليأس من جدوى البحث العبثـــي. دخل سائق تاكسي عجوز، ثم جلس يدخن سيجارة، بدا منـــهكا، طلب قهوة وبقي غير عابئ بشيء. دعاه زميل الدفعة ليجلس معهما، وسألاه دون أن يتوقعا معلومات خاصة. تحدّث طويلا عن إبـــراهيم، أعز أصدقائه إلى قلبه، عن عمّار الصغير، الأقل شهامة مـــن والـــده، كما وصفه، وعن أخته التي تزوجت من ابن خالتها ورحلت، وعـــن شقيقهما. تابع معه رفيق بكامل تركيزه، كبرت لكن ذاكرتي قويـــة، قال لهما يبرئ نفسه من النسيان. أوصل زبونا وزوجتـــه للعاصـــمة، لمستشفى دريد حسين تحديدا، وهناك رأى شابا يشبهه حد التطابق. "أنت ابن ابراهيم تاع سرج الغول" خاطبه ليتأكد مما رأت عيناه، فلم يرد عليه. بدا في حالة ذهول، يتحدث بصوت هـــامس إلى ممرضـــة بدينة ويقلّب بصره في كل اتجاه كأنه خائف من شيء ما. عاد بعدها مع عمّار ليسألا عنه لكن إدارة المستشفى أخبرتهما بأنه تعافى وكتب له الطبيب إذنا بالخروج. قدما رشوة لحارس، فانطلق لســـانه، مـــن تبحثان عنه كان متهما بجريمة، ورد اسمه فيها بالخطأ، على الأغلـــب وشاية أو اتهام باطل، ثم صُحّح الأمر، تشابه أسماء، وربما كان مجرمـــا حقا، لا أحد فهم منه شيئا. هرب من المستشفى ليلة أذن له الطبيب بالخروج، خوفا من السجن أو لسبب آخر لا أحد يعرفه. أنهى كلامه

كأنه يستعرض قصة حفظها خصيصا ليستعيدها أمام عمار وسـائق التاكسي صديق والده إبراهيم. لم تفصح لهما ممرضات المستشفى عن شيء، وإن تبسمن ساخرات من زميلة لهن، بدينة، أحيلـت علـى التحقيق، ورفضت الإدارة إعطاءهما عنوانها.

رصيف ضيق

مرّت أيام طويلة بلا عنوان، ولم يخطر للاعبة الشطرنج، ولو لمرة واحدة، أن تستسلم. رغبت في أن تجعل رفيق ينتصر عليها -ظاهريا- حتى تظفر به، واستوعبت ضرورة أن تمنحه فرصة ليرتاح ويأخذ نفسا، ثم وبأقل الحسابات الممكنة كما تعودت دائما، تعيد محاصرته بحبها. شغلت نفسها بالعمل، بوسيم، وبهزيمة من يتحداها على رقعة تناور عليها بشكل لا مثيل له. لم تحاول الاتصال به أو إرسال الرسائل على الهاتف أو في الفيسبوك. ضلّلها حدسُها واختارت التوقيت الخاطئ، فكانت ضحية للغيب ولما لا يمكن أن تحسب له حسابا. احتفظت بنسخة من مفاتيح الشقة، وكان باستطاعتها مباغتته في أي لحظة، لتعلن رغبتها العارمة في الانهزام أمامه، ثم تنقذه من أوهامه. لكن ذلك ظل بعيدا عن دائرة الأفعال الوشيكة لديها وفضّلت الانتظار. فاتها الكثير طيلة أيام عزمت فيها على التقاط أنفاسها، والأقدار لا تنتظر أحدا. أي قدر اختاره لنفسه أو اختاره له الآخرون؟ قضى ليلة وحيدة في شقته التي هيأها لها، وأزال عنها صرامة منيرة ومسحتها المدرسية، وشوهد في صباح اليوم التالي لعودته من سرج الغول يخرج من العمارة. توجه إلى المستشفى ليسأل عن نزيل كان فيها قبل سنوات. تكلّم مع المدير، استقبله بحفاوة في البداية قبل أن تتغير ملامحه عندما ذكر له اسمه. يحفظون

القصة جيدا هناك. تعافى وأذن له الطبيب الذي كان يتابع حالته بالخروج، قال له، وتكتم عن اسم الممرضة التي أُحيلت للتحقيق بسبب حادثة الهروب، وقد تقرر فيما بعد نقلها إلى مستشفى أخرى. امرأة ستتزوج قريبا، ولا يجب أن نسبب لها أي إزعاج بالعودة إلى قضية قديمة، هذا آخر ما سمعه منه. انصرف من عنده لما تظاهر بالانشغال عنه بمكالمة مهمة. أتعبه السفر إلى سرج الغول دون أن يثمر شيئا. ربما قرّبه من شبيهه أكثر، جعله يتماهى معه ويكتب عنه ملاحظات مهمة ملأ بها مفكرة زرقاء صغيرة يحملها دوما معه داخل حقيبة يعلقها على كتفه. لم يعد يثقله شيء، أودع مسدسه لدى الإدارة، بعدما تحرر منها. كلمه المحافظ ليسأله عن أحواله، ثم أخبره بأنه قد أُعيد فتح التحقيق في قضية الفندق التي أُبعد بسببها مؤقتا، فلم يبد سوى اهتمام ضئيل. تجاوز ذلك، وتغيرت أولوياته، وإن أحب أن يشفي غيظه بأن ينتقم لنفسه، للبلد وللناس جميعا، ولكل شيء جميل في حياتهم أُفسد بمحض الطمع والشر الدفين.

طلب قادة البياع في الهاتف ولم يرد عليه، بعد أسبوع انتفت الحاجة إليه ونسي حتى فيم كان يريده. ذهب إلى مقهى عمي مبارك عصرا، ووجدها شبه فارغة، يتولى خدمة الزبائن بها فتى كثير التثاؤب، ولا أثر للبقية. تساءل عم أعاده إلى حي المحطة، وقد اختفى السيد لا أحد كما صار يسميه، ولم يترك أي أثر. قتل سليمان بن نوي بطريقة لم يتنبّه لها ذلك الطبيب الشرعي، عديم الكفاءة، وحرر تقريره الغبي ذاك. ربما صار يتوهم ذلك ليلصق به تهمة باطلة، يحقد عليه ويحسده لأنه عاجز عن تقليده، إذ ما زال يحيا بين الناس مع أن حجة وجوده صارت داحضة. يلح عليه صديقه الهارب حديثا

إلى كندا، سفيان ثابتي، ليلحق به. يحدثه عن طموحـه في أن يصـير صحفيا لامعا، هناك حيث لا حدود للحلم الإنساني، يـؤمّن علـى قوله، ثم يشكو له أن حياته أصبحت بلا أهمية تذكر. بدأ قبل ذلـك بشقة المتوفى-الضحية فدخلها، كانت فارغة ورائحة الموت تملؤهـا كأن صاحبها رحل بالأمس فقط، غبار يكسو كل شـيء وبعـض الحشرات في الزوايا البعيدة. أما شقة مراد، فآثار مرور أحدهم عليها قريبا كانت واضحة. لا أحد غيره يملك مفتاحها، هل عـاد مـراد؟ شعر بالذنب وأراد أن يعلن توبة اكتشف لما وصل أنها متأخرة جدا، أم أن مالكها الذي خرج منها بفضيحة رجع واستقر فيها ونسي أن يغير قفل الباب؟ لم يشأ أن يطرح احتمال أن السيد لا أحـد قـد تراجع عن قراره بالتبخّر النهائي ومرّ عليها من جديد. أضاع فرصة ثمينة يوم رأى الضوء ينبعث من نافذة الصالون و لم يصعد ليباغت من كان بداخلها. فتح الشرفة ووقف فيها لدقائق، ثم مـدّ بصـره إلى الشرفة المقابلة، كانت مقفلة، وما من خيال يتطلع منها لأي شـيء. في غضون دقائق دخلت إلى المقهـى امـرأة في الأربعـين، حزينـة ومتوترة، وفهم أنها ابنة عمي مبارك. كان قد سأل المتثائبَ عنه فلـم يفده بشيء.. هاتفه مقفل، وربما سيظهر قبل الليل أو في الغد. أنـتن النساء تبالغن دائما، تعوّد أن يغيب كل أسبوع ليوم أو يومين، سمعه يقول لها، لكنها اعترضت على حالة البلادة الـتي يكلمهـا بهـا، ورجحت أن مكروها حلّ بأبيها. كان يقفل المقهى، يذهب ليـزور قبر أبويه بـ "شلالة العذاورة"، ويترحم عليهما أمامهن عندما يسألنه عن مواظبته على قطع المشوار البعيد كل أسبوع. يبدو لهن بارّا كما يليق برجل يعرف حق الوفاء. سافر هذه المرة و لم يسحب المفتاح من

الفتى المتثائب، و لم يوصه أو يوصهن بشيء. طـال غيابـه، وبناتـه قلقات، أما الزوجة اللحيمة الولود فكانت قد حضّرت كل شـيء بانتظار أن تدخل بيته وتحقق له حلم حياته. دفع لها بكرم لم يتعـود عليه مهرا كأنها بكرٌ وكأن ذلك أول عهده بالزواج.

فكّر رفيق في أنه كان أنانيا مع هدى، أحبها من خلال نفسـه، ثم تخلى عنها لما عنّ له ذلك دون اعتبار لأي شيء تحملـه في قلبـها تجاهه. بقي لدقائق أخرى، كلّم فيهـا أمـه، لم يتعـود أن يتعبـها بمشاكله، غير أنّه في هذه المرّة اعترف لها بأن حياته قـد أصـبحت فارغة لدرجة تثير الشفقة. تحتاج للولد أنت يا رفيق.. دعت له دعاء عريضا، ثم طلب منها أن تسامحه مهما وقع. أما السيّد لا أحد الذي اختفى من الحياة ليسكن هواجسه فكان يلازمه الظنّ بأنّـه مـا زال حيّا.. لم يمت و لم يقتل، حيٌّ على نحو ما، أو أحبّ أن يموت دون أن يفارق الحياة. يراقبها من بعيد كأنّه لا تعنيه ويضحك مـن البقيـة. خرج من المقهى إلى وجهة غير محددة، والتقى عند البـاب بعثمـان لاقوش، كان لم يره منذ توفي سليمان بن نوي. تبادلا نظرات سريعة دون تحية، وبدا له كمن يعيش نهاية قاسية وغير متوقعة. أتى عثمـان ليسأل هو الآخر عن عمي مبارك، ويعرض عليه أن يسـاعده في أي شيء لينتزع منه أي مبلغ مهما كان تافها. طرده صاحب المحل بعـد انقضاء مهلة الأسبوع دون أن يدفع له الإيجار المسـتحق، وفعليـا، أصبح لا يجد ما يأكله. كان عمي مبارك كريمـا معـه في الأيـام الأخيرة، لم يطالبه بدفع حق ما يشربه في المقهى، وقد اشـترى لـه مرتين أو ثلاث سجائر محلية. وآخر مرة كان عنده، كافأه بوجبـة دسمة لما ساعده في نقل سرير جديد اشتراه إلى بيته، متين ويتحمـل

الاهتزازات، قال مبتسما. حسده، وتضاعف إحساسه بالعجز، وشعر بأن الحياة تدير له ظهرها بصورة غير مفهومة. تولى طلاء الجدران وتبييض السقف الأسود من فرط الرطوبة، تنظيف الغرف والساحة، وعمليا، صار خادما عنده مقابل قوت يومه. خذله عاشور قابض البريد مجددا، وحاول عثمان أن يبتزه بالماضي، لكنه نهره قائلا إنه كان نذير شؤم عليه. وجد نفسه يغرق في بؤسه، أما طليقته فظهر أنها لم تكن تطلق تهديدات فارغة، إذ استدعي للشرطة على إثر بلاغ تقدمت به ضده. حدث هذا بعد أن أرسلت له مبلغا مع وليد، تبخر ذلك المبلغ سريعا وعاد يطلب المزيد، وقد قرصه الجوع فأمست كرامته من الماضي. تصدت له في المحاولة الثانية، تمادى في الأمل.. لقد تعافيت، جربيني، سأعمل وأحضر لك كل ما تطلبين، قال لها بنبرة متسولة، لكنه كان وجها لحياة تعيسة قررت أن تخلعه للأبد. لن تعود للجحيم ثانية، أطلقت ضحكة عالية ثم هددته بالسجن إن عاد، ووعدته أن ترسل له مع الأولاد أول كل شهر ما يعيش عليه.. المال ليس كل شيء يا بقرة، هكذا رد عليها بغضب، كأنه يرفض حقا ما اقترحته عليه. إن قتلها فلن يحل أي مشكلة، غير أن ذلك انتقام يرضيه إلى درجة ما، وقد فكر في ذلك غير مرة. وإن قتلتَ بعلها الهرم سترثه وتعود إليك وهي غنية، هكذا وسوس له شيطانه، لكن هشاشته كانت أقوى من حقده على أي منهما. لو كنت صاحب كرامة لقتلتها من أول يوم، أما الآن فقد تأخرت كثيرا، يقول له عمي مبارك وهو أبكم لا يستطيع التعليق بكلمة واحدة. يملك الأسباب الوجيهة لانتقام مماثل، يخنقها ويبول على جثتها أمام العجوز اللعين، لكنه لا يتحلى بالشجاعة الكافية، يحدث نفسه ويقرّ بذلك.

أصبح جبانا وضعيفا، يراها تزداد قوة كل يوم، وهو ينحدر بلا نهاية.

انقطع عن هدى الدم، وخمنت أن ذلك بسبب التعب والتوتر، وبعد أربعة أيام اكتشفت أن تخمينها لم يكن في محله. أجرت اختبارا للحمل فجاء بالإيجاب. لم تفكر حينها أن ذلك ممكن، كأنه أضعف احتمال لأي حادث في الحياة. الرجل عقيم، هذا ما كان يظنه، ويعاند الأطباء بشأنه ويهرب منها أن يعذبها أو يرى الشفقة عليه في عينيها. صباح ملتبس، فرح ناقص ومطعّم بالحيرة، لكن البحث عنه غدا أكثر من مبرر، ويتجاوز مناورات عاطفية تقصد بها الفوز بقلبه وبالحياة معه. رجل يستحق، وهو الآن والد لمن في بطنها، طلبته في الهاتف لتفرحه فوجدته مقفلا، ثم قصدت شقتهما المفترضة، حيث ذروتهما اليتيمة تمخضت عن جنين وحيرة كبيرة. وجدت الشقة فارغة، مرتبة، بعض الكتب موضوعة على طاولة الصالون، وصورته ببذلة الشرطة على الجدار، مصباح سريره يبعث نورا خافتا، وثيابه في الخزانة كما هي، والثلاجة خاوية إلا من قارورة ماء معدني ومثلثات الجبن. كتبت له على ورقة صغيرة أن يتصل بها للضرورة القصوى، وتركتها أين يمكن أن ينتبه لها بسهولة. حاولت الاتصال به عشرات المرات دون طائل، وفي الليل لامت نفسها لأنها ابتعدت عنه لوقت أطول مما ينبغي. توقعت أن يكون قد عاد لمنيرة، الحب الأول لا ينسى، لعنته كثيرا، ثم شطّت بتفكيرها حد الذهاب إليها في الثانوية لاستعادته منها. أخذت فرصتها كاملة، ولا يحق لها أن تطمع في فرصتها هي معه. منحته ما عجزت غريمتها أن تمنحه إياه طيلة عشرة أعوام كاملة. أصابها أرق وعاقرت الشكوك لليلة طويلة، ثم عادت في الغد ولم يكن هناك، ووجدت الورقة التي كتبتها في مكانها. دقت

على باب جاره الأقرب ففتحت لها عجوز وأخبرتها أنهم أصــــبحوا، ومنذ انفصاله عن زوجته، لا يشعرون بوجوده، ثم لم يبق أمامهـــا إلا أن تسأل عنه في مركز الشرطة حيث كان يعمل.

أجّلت السؤال عنه إلى الغد، وفي الطريق الأطول إلى أي غـــد انتظرته على الإطلاق، خطر لها ألف خاطر. لئيم وهـــوائي، ومـــن الأفضل ألا تعثر عليه أبدا، إن عاد فسيعذبها في كل مرة.. أن تتخلص من الجنين وتغلق باب العذاب ذاك قبل أن ترى الويل. اتهمت نفسها بالغباء، غبية على درجة عالية من التـــذاكي. الإفـــراط في اختـــزال الحسابات قد ورطها في جنين لن تعثر على أبيه أبدا. أحبته، وأسعدها أنها ستنجب منه، لكن حظها مع الرجال قليل. وهذا دليـــل آخـــر سوف تشهره في وجه أمها التي تتهمها بأن لامبالاتها هي الســـبب.. ها هي الآن تبالي، تبحث عنه، وتود إذا وجدته أن يكون لها. لم تشأ أن تفقد الأمل، كان الوقت مبكرا للوقوع في يأس سابق لأوانه، وإن أحست بعبثية إعادة الحسابات التي أسقطتها أثناء سيرها للوصول إلى النقطة التي وصلت إليها.

استقبلها المحافظ عبد الوهاب شعّال بحفاوة، وارتبكـــت فلـــم تعرف كيف تقدم نفسها له، وبأي صفة تسأل عنه.. مـــن تكـــون هدى ونّاس بالنسبة لرفيق ناصري؟ امتحان عابر لكنه عسير، ومـــن حسن تقديره أنه اختصر عليها الأمر. الضابط رفيق ناصري في عطلة طويلة، قال بصوت محايد، ثم أضاف بنبرة الصوت نفسها: للأسف لا أتواصل معه بالهاتف إلا نادرا.. تعرفين ضغوط العمل. انسحبت من عنده شاكرة تفهمه، ثم نصف ساعة أخرى، وقررت أن تذهب مـــع كل احتمال إلى نهايته، لذا وجدت نفسها تركن سيارتها أمام مدخل

ثانوية بوعمامة. وقفت معها وتفادت أن تلتقي نظراهمـــا، لم تكـــن واثقة مما تفعله، ولا حتى إن كانت أستاذة الرياضيات "منيرة داودي" تستحق منها أن تعتبرها غريمة. ومثلما فعل المحافظ، اختصرت عليها الإحراج وتلفيق كذبة غير قابلة للتصديق، فلم تسألها عـــن الصـــفة. تعرف شيئا عنها، أو تمخض حدسها الأنثوي عن توقـــع في محلـــه، وكان القلق في عينيها ينبئ عن كل شيء. وقفتا وتواجهتا، النظرات المتحفزة، والصمت المشحون بعدوانية تحت السيطرة وبســـيل مـــن الشتائم المحتبسة في الصدر، لم يكونا كافيين لبدء معركة تشفي الغليل بينما الغنيمة مختفية. هل رجع رفيق إليك؟ سألتها كمن يســـتجدي نفيا قاطعا، "اختفى منذ لا أعرف كم من يوم" خفضـــت النـــبرة، بصوت أخوي مبالغ في الرجاء والاعتذار عن احتلالها لقلب كان لها. لم تجبها منيرة بكلمة، ثم هزأت رأسها بالنفي بعـــد لحظـــات مـــن الصمت. وجدتا أخيرا ما يمكن أن تتفقا حوله، الخـــوف عليـــه. لا يهمني.. أنا امرأة متزوجة الآن، احتفظت بصرامة لافتة وهي تُسمعها ذلك، أرادت أن تنفي أن تكون على استعداد للاتفاق معها حول أي شيء.. لم تكن صادقة تماما وفشلت نســـبيا في إخفـــاء اهتمامهـــا. نكست هدى رأسها بأسف، ودت لو تعرف منها الأمـــاكن الـــتي يرتادها عادة، لكنها لم تستطع. مشت خطوات قليلـــة، ثم سمعتـــها تقول لها: اطلبـــي منه أن يطمئنني عليه عندما يعود.

أخذت هدى موعدا بالهاتف مع المحافظ شعّال، أعطاها رقـــم هاتفه في المرة الماضية، ترددت قليلا ثم كلمته. العمل بالشرطة مرهق جدا، انتحار بطيء إذا أردنا وصفه بدقة.. آسف، صـــرت أتـــذمر كثيرا، أنت مرحب بك دائما ويمكنك المجيء بعد غد، إذا كان يـــوم

السبت يناسبك، شكرته بامتنان، العفو أنا في خـــدمتك دكتـــورة. فكرت أن تبحث عن طريقة للوصول إلى أهله، ربما يكون عند أمه، حدثها مرة عنها، ويبدو شديد الارتباط بها. قد يذهب إليها ليرتـــاح قليلا، وإن لم يذهب؟ ستقلق أمه وقد ينزعج هو من تطفلها. بقيـــت تفكر في طريقة أخرى لتسأل عنه، تعب ورجع إلى أهله ليرتاح قليلا، هذا ما كانت تأمله. سيعود، يجب أن يعود. مرّ يوم الجمعة ثقـــيلا، وعلى الساعة التاسعة من صباح السبت كانت في قاعـــة الانتظـــار لتدخل للمفتش، إذ قررت أن تتقدم ببلاغ رسمي عن اختفائه، زوجته ويحق لها أن تقلق عليه.

بدا المحافظ متفهما ووعدها ببذل جهد أكبر من المعتاد، كـــان يعمل تحت إمرته وقال إنه يحبه. لم يكن من الصعب أن يسأل ليتأكد من أنها زوجته بالفعل، وفق عقد زواج صـــحيح. اســـتقال رفيـــق ناصري من الجهاز قبل مدة، أثناء العطلة الطويلة التي طلبها. حسنا.. كان متعبا وتفهمت رغبته، قال يخبرها عن رأيه في خروج رفيق مـــن الشرطة قبل أن يستطرد، أنا كذلك أود الخروج أيتها الطبيبة، نحـــن نتحمل انحراف الجميع ومطلوب منا أن نحمي الكل من شرور الكل. سمع خطبة الإمام بالأمس، عندما كان مكبر الصوت يصدح بالموعظة البليغة. خطيب مفوّه، استُقدم حديثا من مسجد التقوى بحي المحطة، وعُيّن عميدا بالنيابة لأئمة المدينة بانتظار أن يُرسّم في المنصب. تحدث عن التبرّج وعن الزنا الذي أصبح فاشيا، وعن أخذ أمـــوال النـــاس بالباطل باسم الله. سرقته غفوة خفيفة أثناء الخطبة، كـــان الشـــيخ حسان دفّاف يقرأ بصوت شجي، فيما كانـــت تســـوقه الخـــواطر السريعة في كل اتجاه. دخن سيجارتين وهو يثرثر أمامها، كان مرهقا

ولحم وجهه متهدل، حدثها عن مواقف أخذها رفيق ناصـــري، وأن الضغوط التي خضع لها بسبب ذلك الفندق اللعين قد أثرت فيه. ربما اختفى عن الأنظار ريثما يهدأ بعض الشيء. زاد فخرها بـــه، وودت لو تخبره بأنها تحمل في بطنها من مِن شأنه أن يعيد رفيق للحيـــاة إذا سمع بوجوده حتى لو كان ميتا. أرهقتها الهواجس، انسحب قبـــل أن ينتصر، كان الظفر يحتاج فقط إلى انتظار أيام أخرى قليلـــة لكنـــه استعجل الهزيمة. تقدمت ببلاغ رسمي عن اختفـــاء زوجهـــا رفيـــق ناصري. ساد الصمت قليلا، وجدت أن اهتمام المحافظ يقل بمـــرور الدقائق، وفي الإجمال كان اهتمامه بالأمر أقل مما توقعته، شكرته من أجل لا شيء، ثم انسحبت بانتظار أن يبلغوها بأي جديد.

رافقها إلى البهو في الطابق الأرضي، وقف معها لثوان، ثم قاطعه مساعده فودعها وعاد إلى المكتب ليبلغوه أنهم عثروا على جثة شـــيخ بالمقبرة. توفيت فتاة بالأمس إثر حادث مرور وذهب أهلها ليحفروا لها قبرا، فوجدوا الضحية. كان يلتف حول رقبته سلك معدني، ووجهـــه مشوه بماء البطاريات، على الأغلب، كي لا يُستدل عليـــه. لم يكـــن انتحارا، وإنما جريمة مدبّرة سبقها عراك عنيف، وآثار العدوان ظـــاهرة عليه. أفادت المعطيات الأولية أن المجني عليه يدعى مبارك طهـــرواي، عمره اثنان وسبعون عاما، يملك مقهى بحي المحطة، ويسكن في بيـــت غير بعيد من هناك، له خمس بنات، كلـــهن متزوجـــات. يـــرجّح في حالات مثل هذه أن يكون الدافع وراء الجريمة هو المال. سافر مبـــارك طهرواي منذ أيام و لم يعد إلى بيته، ومع ذلك لم تقدم بناته أي بـــلاغ عن اختفائه. قال حارس المقبرة، جلال بن حْميدة، وينادونـــه جـــلال الأعمش، إنه لا يعرف شيئا، وهو رهن الاحتجـــاز بانتظـــار تقديمـــه

للنيابة. سمع عبد الوهاب شعّال كلّ ذلك من مساعده دون أن يعلّـــق بكلمة، ثم سأله عن رجلهم بحي المحطة، قادة البياع، ربما يفيدنا بشيء، قال متبرما من كل شيء، أجابه المساعد بأنهم حاولوا الاتصال به دون جدوى حتى تلك الساعة. صدرت التعليمـــات للعناصـــر أن يبقـــوا مرابطين في المقبرة التي أصبحت دون حارس، على أن تتولى مؤسســـة تسيير المقابر بالعاصمة إرسال من يعوض جلال الأعمش، بينما انتقـــل المحافظ للمستشفى يريد أن يقابل أي أحد من أهل الضحية.

عند مدخل الاستعجالات التقى بهدى من جديـــد، وأخبرهـــا ضجِرا بأنه صار لا يستطيع النوم دون منوّم. كانت قـــد رجعـــت لتباشَر مناوبتها في مصلحة التأهيل الحركي بعد نصف ساعة، لكـــن فضولها دفعها لمعرفة سبب الفوضى عند الباب. أحضـــرت ســـيارة الحماية المدنية جثة هامدة. رجل في الخمسين ألقـــى بنفســـه أمـــام القطار، نحو الثامنة وعشرين دقيقة صباحا، كـــان الركـــاب علـــى الرصيف المزدحم ينتظرون أن يتوقف القطـــار تمامـــا ليصـــعدوا إلى العربات. أغمض عثمان لاقوش عينيه، وقذف بنفسه على الســـكة، وكان قبلها بدقائق قد شوهد يدخن سيجارته الأخيرة، جالسا علـــى الكرسي الحديدي مادّا رجليه، ولا يبالي بشيء كمن ينتظر موعـــدا تافها وروتينيا لا يستحق أي اهتمام خاص.

بعد يومين عادت لتقابل المحافظ لتســـأله إن توصـــلوا لشـــيء بخصوص زوجها، لكنه لم يكن بمكتبه، وأخبرها شرطي الاســـتقبال بأنه قد لا يأتي اليوم. خرجت محبطـــة، وعرّجـــت في طريقهـــا إلى المستشفى على مكتب بريد صغير بالضاحية. قـــررت أن تســـحب راتبها لهذا الشهر كاملا، وتطلب بعدها إجازة طارئة لتتفرغ للبحث

عنه. أصبح رفيق، بعد ثبوت الحمل، يساوي أكثر من مجرد الانتظار الأبله والقلق العقيم على غيابه. عزمت أن تخوض معركتها إلى النهاية وتسترجعه، وكل ما تمنته أن يكون بخير ولم يتعرض لأي مكـــروه. تذكرت أنّ عليها شراء هدية لممرضة زميلة أعطتها دعـــوة لحضـــور حفل زفافها، اعتبرت أن دليلة علاق سيئة الحظ وتستحق أن تقـــف معها. وصلت لمكتب البريد الذي كان بالعادة هادئا، وتقصده دائما لسحب ما تحتاج إليه من نقود. وجدت بداخله، هذه المرة، لجنة تجرد الأموال، والموظفون في حال توتر شديد، أما قابض مركـــز البريـــد، ويدعى عاشور، فقيل لها إنه فرّ بالأمس لجهة غير معلومة مخلفا وراءه ثغرة مالية كبيرة. استقلت بعد الظهر سيارتها مع زميلاتها المـــدعوات للحفل مثلها، ذهبت بلا مزاج لتجبر خاطر تلك المسكينة، التزمـــت صمتا مطبقا في الطريق إلى باش جراح، وأثناء الحفـــل ظهـــر أنهـــا مهمومة لدرجة يصعب معها إظهار أكثر من الابتسامات الفارغـــة. بعد أقل من ساعة استأذنت في المغادرة فأصرت عليها العروس لتبقى حتى ترى عريسها، بدت في فستانها الأبيض الذي ضـــاق بجســـمها المتكدس مثيرة للضحك، ولما دخل لتُلتقط لهما الصور، تبادلت النساء السخرية بشأنهما. كانت دليلة علاق سعيدة بذلك النحيـــل، وهـــي تجرّه من ذراعه، مثل طفلة صغيرة اشترت أول دمية لها. أما هـــدى فهمّت بمغادرة الحفل بعدما كلمها عبد الوهاب شعّال وطلب منـــها الحضور فورا، ولم تنتبه لدخول العريس، لكنها عندما رفعت رأسها ورأته، عرفت أن الوقت قد تأخر كثيرا ليتدارك الجميع أي شيء.

- تمّت -

للتواصل مع الكاتب:

taibaoui.ahmed@gmail.com



للتواصل مع الكاتب:

taibaoui.ahmed@gmail.com